التجربة الإنسانية المأساوية
في شعر الدكتور محمد أحمد العزب

إعداد

د/ وائل صلاح إسماعيل محمود

مـدرس الأدب والنقـــد

في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بإيتاي البارود

١٤٤٣هـ = ٢٠٢٢م

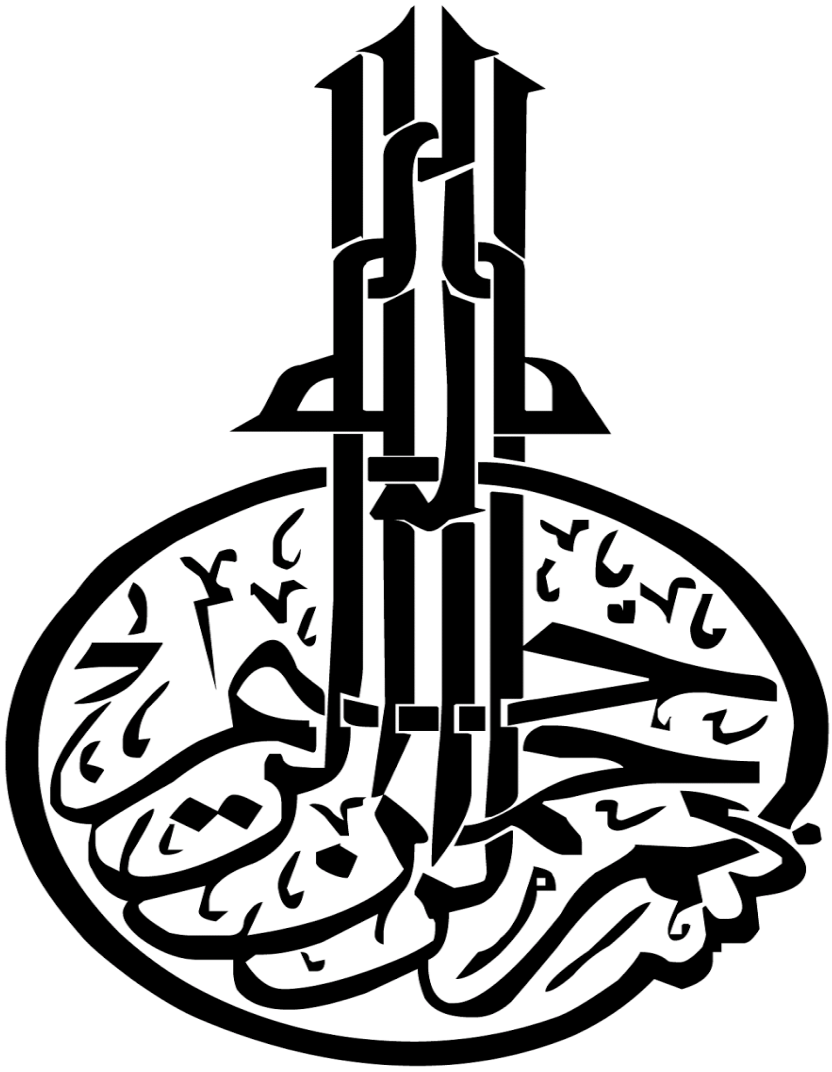

التجربة الإنسانية المأساوية في شعر الدكتور محمد أحمد العزب

وائل صلاح إسماعيل محمود

قسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية بايتاي البارود، دمنهور، مصر

البريد الإلكتروني:

Waelsalah. 2034@azhar. du. eg

ملخص البحث:

تدور فكرة هذا البحث حول إحصاء ودراسة الشعر الإنساني المأساوي في ديوان الدكتور محمد أحد العزب، والذي رصد وعالج من خلاله مجموعة من التجارب الإنسانية المأساوية التي عاني أصحابها من بعض المآسي والآلام النفسية المريرة، التي اعتصرت قلوبهم الموجوعة، وأقضّت مضاجعهم المهجورة، وجعلتهم يتألمون ويتأوهون بصرخاتٍ وآهاتٍ حارة لا يسمعها ولا يستشعرها إلا صاحب حسٍ مرهفٍ ووجدان شفيفٍ رقيقٍ كالدكتور محمد العزب، الذي تعاطف بروحه المرهفة وشاعريته المتوهجة مع أصحاب تلك التجارب الإنسانية، تعاطفًا صادقًا، واندمج معهم وفيهم اندماجًا روحيًا وفنيًا متكاملًا، أشعرنا من خلاله أنه يتحدث عن آلامه وأوجاعه الشخصية، وذلك في إطارٍ من الصدق العاطفي والتأثير الوجداني الكبير الذي جعل القارئ والمطالع لهذا اللون الشعري عند الدكتور العزب يشارك أصحاب تلك التجارب المأساوية أوجاعهم، ويتعاطف معهم، ويبكي علي بكائهم وآلامهم. وقد نوّع الكتور العزب في حديثه الماتع عن هذا الجانب الإنساني وشمل الإنسان بجنسيه الأنثي

والذكر، والكبير والصغير. وقد حلّق شاعرنا العزب بشعره في هذا الجانب الإنساني العميق علي جراح الإنسانية بنوعيها (الذكر والأنثي) حيث تحدث عن أدق المشاعر وأعمق المآسي وأنكي الجراحات التي تعتصر بقلب المرأة علي اختلاف صورها، فنراه قد تحدث عن مأساة المرأة العاقر التي حُرمت من نعمة الإنجاب والولد، وتحدث عن مأساة المرأة العانس التي تخطاها قطار الزواج، وتحدث عن مأساة الأم الثكلي التي فقدت ابنها الشهيد، وتحدث عن مأساة الفتاة الخادمة التي أنكرها المجتمع وغضّ طرفه عنها وعن إنسانيتها البائسة.

الكلمات المفتاحية: التجربة الإنسانية – المأساوية – محمد أحمد العزب– الحرمان – العقم.

The Tragic Human Experience in the Poetry of Dr. Muhammad Ahmad Al-Azab

Wael Salah Ismail Mahmoud
Department of Literature and Criticism، Faculty of Arabic Language، Baytay Al-Baroud، Damanhour، Egypt
Email: Waelsalah. 2034@azhar. du. eg

:Abstract

The idea of this research revolves around the census and study of tragic human poetry in the office of Dr. Muhammad Ahad Al-Azab، through which he monitored and treated a group of tragic human experiences whose owners suffered from some tragedies and bitter psychological pain، which squeezed their aching hearts، and made them suffer and groan with screams. And hot groans that only a person with a delicate sense and a transparent and tender conscience can hear or feel، such as Dr. Muhammad Al-Azab، who sincerely sympathized with the owners of those human experiences with his delicate spirit and glowing poetics، and merged with them and them in a complete spiritual and artistic amalgamation، through which we felt that he was talking about his personal pains and aches. This is in a framework of emotional honesty and a great emotional impact that made the reader and the reader of this poetic color at Dr. Al-Azab share the owners

of those tragic experiences their pain، sympathize with them، and weep over their weeping and pain. Al-Azab has diversified in his interesting talk about this human aspect and included man with his genders، female and male، large and small. Our bachelor poet shaved his poetry in this deep human aspect on the wounds of humanity of both types (male and female)، where he talked about the most delicate feelings and the deepest tragedies and the most painful surgeries that squeeze the heart of a woman in all its forms. On the tragedy of the spinster woman who was crossed by the marriage train، and he talked about the tragedy of the bereaved mother who lost her martyred son، and he talked about the tragedy of the servant girl whom society denied and turned a blind eye to and about her miserable humanity.

keywords: The tragic human experience- Muhammad Ahmad Al- Azab- Deprivation- Sterility.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي أشرف الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين.

وبعد

فإن الشعر الإنساني عند الدكتور محمد أحمد العزب جدير وحقيقٌ بأن يُفرد بالدراسة والبحث، حتي نستشفَ منه دلالاته ومراميه الإنسانية والوجدانية الراقية، ذلك لأنه يرسم لنا صورًا إنسانية نادرة المثال علي صفحات الشعر العربي، تفردت بها تلك الشخصية الأدبية الأزهرية الأصيلة. وتلك المقدرة البيانية التي استطاع عن طريقها ذلك الشاعر الأزهري الفذّ أن ينقشَ اسمه من نور في سجل النابهين، والتي صوّر من خلالها أدقّ وأعمق المشاعر والتجارب الإنسانية المأساوية، وأرقّ الخواطر والمآسي الأليمة التي عانتها وتلظت بها نفوس وقلوب البعض من بني جنسه من البؤساء والضعفاء والمحرومين، الذين حرموا بعض زينة ومتاع الدنيا وحطامها الزائل، ومما زاد من حزنهم وبؤسهم عجزهم عن البوح بآهاتهم وأوجاعهم الحبيسة، ولكنهم وإن كانوا قد حرموا شيئا من تلك المتع والنعم الدنيوية فلم يعدموا الخير من الأصلاء من بني جنسهم، الذين حباهم الله نعمة البيان والتعبير عن مشاعر الآخرين ووصف أوجاعهم، فهيأ الله لهم من يعبر عنهم، ويبين عن آلامهم وتجاربهم الإنسانية المأساوية المريرة أبلغ بيان وأصدق تعبير.

وقد أفرد الدكتور محمد أحمد العزب في ديوانه الفريد (أبعاد غائمة) مجموعة من القصائد الإنسانية البليغة المؤثرة، عبّر من خلالها عن مجموعة من التجارب الإنسانية المأساوية المريرة التي عاني ويلاتها ومرارتها فئات من الناس من المحرومين والضعفاء، وعرض لنا من خلال تلك التجارب الإنسانية الفريدة مدي حجم وقساوة المأساة والمعاناة التي يعيشها ويكابدها أصحاب تلك التجارب المتناولة، واستطاع شاعرنا الدكتور العزب أن يندمج في أعماق ودواخل تلك التجارب بصورة شفيفة وصادقة، وبدرجة عالية من العمق والفكر والتصوير، ممّا يُخيَّل إلي قارئ تلك القصائد أنه هو صاحبها وبطلها الحقيقي، ما يؤكد علي تميز الشاعر وتفرده في هذا الاتجاه الشعري الفريد، وعلي مقدرته العالية علي تصوير مشاعر الآخرين بدقة ووضوح، فضلا عن مقدرته العالية علي تصوير مشاعره وتجاربه الخاصة.

وقد أشار الدكتور العزب نفسه في شعره بطغيان ذلك الجانب الإنساني وسيطرته علي فنون شعره وذلك في قوله: (١)

وأنا أقول الشعر... أغمسُ في الجراح قصائدي

وصرّح مرة أخري بقيمة النزعة الإنسانية وفلسفته في شعره الذي أوقفه علي وصف آلام وآمال الآخرين وذلك في قوله علي لسان نشالٍ سرق أوراقه الشعريه: (٢)

وجدتُ حصاد هذا الشاعر الفنان أوراقا

(١)الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور محمد أحمد العزب الطبعة الأولي سنة ١٩٩٥ م- ١٤١٥هـ ص ٦٣٥.

(٢)الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور محمد أحمد العزب ص ٦٤٢.

فتلك وريقة غنّي بها للحب أشواقا
وتلك وريقة تبكي دما للناس رقراقا
وتلك وريقة تبني ربا وتشيد آفاقا
وتلك وريقة تهدي لنا للكون أحداقا
لنبصر في الطريق مهاويا جوعي وأشداقا
وألف سحابة تهمي دما مرًا وأوهاقا
لنبصر عالما ظمآن آفاقا وأعماقا
ويا لله كانت أحرفا من صنع فنان
رأيت خلالها دنياي في أحداق إنسان
يناضل دون أن أدري لآلامي وأحزاني
يناضل لي وللآلاف تحيا خلف قضباني

وقد جاءت تلك التجارب في شعر الدكتور محمد العزب بصور متنوعة ومتباينة، بحيث استطاع الشاعر الموهوب أن يغطي بشعره في ذلك الجانب الإنساني الفريد معظم فئات وطبقات الناس المختلفة، شأنه في ذلك شأن الطائر المغرد الذي يطير ويتنقل بشعره من فنن إلي فنن، ينسج ويعزف لنا بشعره أعذب الألحان وأشجي العبارات والكلمات الموحية والمعبرة عن آلام الآخرين وأوجاعهم.

وقد حلّق شاعرنا العزب بشعره في هذا الجانب الإنساني العميق علي جراح الإنسانية بجناحيها (الذكر والأنثي) حيث تحدث عن أدق المشاعر وأعمق المآسي وأنكي الجراحات التي تعتصر بقلب المرأة علي اختلاف صورها، فنراه قد تحدث عن مأساة المرأة العاقر التي حُرمت من نعمة

الإنجاب والولد، وتحدث عن مأساة المرأة العانس التي تخطاها قطار الزواج، وتحدث عن مأساة الأم الثكلي التي فقدت ابنها الشهيد، وتحدث عن مأساة الفتاة الخادمة التي أنكرها المجتمع وغضّ طرفه عنها وعن إنسانيتها البائسة.

ثم عرج الشاعر المبدع بعد ذلك للحديث عن بعض المآسي والأوجاع التي تعتصر قلوب البعض من الرجال، الذين أنهكتهم المآسي، وأوجعتهم الشدائد والآلام، فتحدث عن مأساة أحد اللاجئين الفارين من أوطانهم وديارهم قهرًا وقسرًا، مصورًا ذكرياته وأيامه المريرة خارج وطنه، وتحدث عن رحلة أحد الصيادين من البؤساء الفقراء الذين أنهكهم السعي وأعياهم البحث عن لقمة العيش الطيب الحلال التي يسدّ بها جوع أطفاله، وتحدث كذلك عن مآسي البعض من الأطفال البؤساء والفقراء الذين عضَّهُم الجوع وأشحبهم الفقرُ والحرمان.

وغير ذلك من التجارب والمآسي الإنسانية المريرة التي كثرت وتنوعت في شعر الدكتور محمد أحمد العزب بصورة ملفتة ومعبرة ومؤثرة.

الأمر الذي يجعلنا نقف أمام شعر الدكتور العزب وقفة إجلال وإكبار، فهو شاعر مصري وأزهري أصيل، من طراز إنساني فريد، تميز عن بقية شعراء عصره بتلك النزعة الإنسانية الصادقة في شعره، التي جعلته يتعاطف بفنه وشعره مع أبناء جنسه يشاركهم المآسي والأوجاع، ويتحدث علي ألسنتهم وأحوالهم، ويربتُ علي قلوبهم وأكتافهم الموجوعة، ويُضَمِّد جراحهم بالكلمة الشعرية الشفيفة الرقيقة، ليؤكد بذلك علي حقيقة دينية وقيمة إنسانية عالية تكاد أن تنمحي وتضيع من الحياة بسبب وحشة وشراسة

صراعات الحياة وماديتها المتوحشة التي قطعت الأواصر وجمدت المشاعر بين الناس، تلك الحقيقة التي أقرها القرآن الكريم في قول الله تعالي:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (١) وأكّدها النبي الكريم صلي الله عليه وسلم في قوله: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ ".(٢)

وقد دفعتني القراءة المتأنية في شعر الدكتور محمد العزب وهالني وأنا أتصفح ديوانه الفريد ذلكم الكم الكبير والوفير من الشعر الإنساني المأساوي، إلي محاولة الكتابة والبحث في هذا الجانب المطمور من شعره، ومحاولة نفض الغبار عن هذا الكنز الإنساني المخبوء بين دفتي ديوانه الثمين، وارتأيت أنه من الأنسب في دراسة هذا الجانب الإنساني من شعر الدكتور العزب الاعتماد علي المنهج الفنىٰ في قراءة هذا اللون من الشعر الإنساني ودراسته دراسة فنية تحليلية.

وشرعت في تقسيم هذا البحث إلي مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث علي النحو التالي:

المقدمة وهي تعني بالحديث عن موضوع البحث والتعريف به.

ثم التمهيد وهو بعنوان : الشعر وقضايا الإنسان والمجتمع.

---

(١)الآية ١٣ سورة الحجرات.

(٢)صحيح الإمام مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. ٤ / ١٩٩٩.

ثم المبحث الأول بعنوان : الدكتور محمد أحمد العزب سيرته وحياته.

ثم المبحث الثاني بعنوان : صور التجارب الإنسانية في شعر الدكتور العزب.

ثم المبحث الثالث بعنوان : السمات والخصائص الفنية في الشعر الإنساني عند الدكتور العزب

ثم خاتمة البحث ونتائجه.

ثم قائمة المصادر والمراجع.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلي سواء السبيل

التمهيد

الشعر وقضايا الإنسان والمجتمع

مما لا شك فيه أن الشعر هو تعبير فني بليغ عن المشاعر والوجدان والأحاسيس الإنسانية الصادقة، ولكن لا ينبغي للشاعر أن يبالغ في التعبير عن تلك المشاعر والأحاسيس الشخصية وينعزل عن واقعه وعالمه الإنساني الذي يحيا ويعيش فيه، فليس الهدف من الشعر تحقيق متعة ولذة تذوقه فحسب بقدر ما هو وسيلة فاعلة لإصلاح الحياة، ورسالة إنسانية وحضارية سامية تهدي الحائر الضال، وتقوّم المائل المعوج من الناس والأخلاق، وهو كما عرفه باعث النهضة الشعرية الحديثة " محمود سامي البارودي " بقوله: إن الشعر لُمعةٌ خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، فتنبعثُ أشعتها إلي صفحة القلب، فيفيض بلألائها نورًا يتصل خيطه بأيلة اللسان فينفثُ بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك، ويهتدي بها السالك، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيبُ النفوس، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلي مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التي ليس وراءها لذي رغبة مسرح، وارتبأ الصهوة التي ليس دونها همة مطمح " (١).

وقد غلب علي شعرنا العربي القديم وعلي شعرائه نزعة فردية وذاتية واضحة، لازمتهم في شتي أطواره التاريخية، ومراحل تطوره عبر العصور الأدبية المختلفة، وكذلك في شتي أغراضه وفنونه الأدبية، فالشاعر العربي القديم في مدحه وذمه وفخره ورثائه وغزله كان يصدرُ في كل ذلك عن نزعة

(١) ينظر مقدمة ديوان محمود سامي البارودي تحقيق علي الجارم طبعة دار الكتب المصرية الجزء الأول ص ٣ / ٤

ذاتية محضة، وقلما نجد مشاركة إنسانية من الشاعر القديم تجاه قضايا وأزمات أخيه الإنسان، سوىٰ في بعض الأبيات الشعرية المحدودة التي تشير علي استحياء إلي بعض هموم وآلام الإنسان وأزماته، كتلك التي نجدها عند أبي العلاء المعري في لزومياته الشعرية، التي تظهر عنده نزعة إنسانية صادقة عالج من خلالها بعض القضايا والأزمات الإنسانية في عصره.

حتي إذا ما أطل علينا العصر الحديث بأحداثه وحوادثه السريعة المتعاقبة، هبّت معه رياح الغرب العاتية التي بدت في ظاهرها تحمل معالم التغيير والتطوير والتنوير، وفي باطنها تُضمرُ سموم الاحتلال والتغريب والتغييب، فكثرت معاناة ومآسي الإنسان العربي جرّاء ما صاحب تلك الحملات الاستعمارية الضارية من قسوة ومظالم وآلام وأحزان.

فكان لزاما علي الشعر العربي الحديث أن يواكب تلك الأحداث والمتغيرات الحديثة التي طرأت علي الحياة، وكان علي الشعراء أن يتخلوا عن ذاتيتهم بعض الشيئ، ويهجروا أبراجهم الذاتية العاجية ويلتحموا بالمجتمع، ويعالجوا أزماته وقضاياه، ويعبروا عن آلام الناس وأوجاعهم، وتلك هي مهمة الأدب الأولي ورسالة الشعراء السامية، فالأديب الحقيقي يجب أن " يعتقد أنه جزءٌ حيٌ من مجتمعه الخاص، وأنه عنصر أساسي في المجتمع الإنساني العام، وأن هذا الجزء وذلك العنصر له وظيفة طبيعية كوظائف الأعضاء في الجسم السوي، والوظية الطبيعية للأديب أعني لهذا العضو الحي في وطنه المحدود، لهذا العنصر الأساسي في مجتمعه الإنساني الطليق هي تزكية المعاني الرفيعة للحق والخير والجمال، هي إيقاظ الأخيلة الخصبة الوضيئة للعقل والفكر والوجدان، هي التبصير بحقائق الفطرة

وخفايا النفس، هي التذكير والتبشير بالمثل والأهداف التي تمضي بالإنسان في طريقه إلي الأمام، وهي مع ذلك تجميل وترفيه وإمتاع يخفف وطأة الملل والجد والخشونة في الكفاح المادي لكسب الحياة " (١).

ومن هنا كانت الواقعية هي أقرب المذاهب الأدبية لتصوير الجانب الإنساني والحديث عنه بصدق ووضوح، حيث نشأ المذهب الواقعي أو الطبيعي أو التجريبي علي دعائم من إيمان بالعلم في حقائقه وتجاربه وتطبيقاته، وتقدير للظواهر الإنسانية والإجتماعية التي تراها العيون في مجتمع الناس " (٢).

فلا يمكن أن ينسلخ الأديب عن المجتمع الذي يعيش فيه، وعلي ذلك فإنه يتأثر بواقعه وحياته الخاصة التي يحياها ومجتمعه الذي يتنقل بين ثناياه ويقوم بمعالجته من خلال رؤيته الخاصة. علي العكس تماما من الأديب المنعزل الإنطوائي الذي ينطوي علي نفسه وينعزل عن مجتمعه، يأتي أدبه ضيقًا محدودا لا أثر له ولا نفع فيه.

فالفارق الفاصل بين الأدب الإنساني العظيم الهادف والأدب الذاتي أو الشخصي هو أن الأدب الإنساني العظيم هو الذي يستطيع أن يؤثر في المجتمع، ويقدر علي تغيير بعض المفاهيم والمعتقدات الخاطئة به، وقادر علي البقاء والاستمرار في المجتمع والحياة، والمحافظة والإعلاء من قيمة

(١) الأدب الهادف لمحمود تيمور طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة الطبعة الأولي سنة ١٩٥٩ م ص ١٨١.

(٢)السابق ص ١٧.

الإنسان والوقوف بجانبه. بينما الأدب الذاتي أو الشخصي هو أدب ضيق ومحدود، يقف نفعه وأثره عند حدود صاحبه ومنشئه فحسب، وسرعان ما ينتهي أثره وتنمحي معالمه.

ومن هنا تأتي قيمة النزعة الإنسانية لدي الشعراء وأهمية الجانب الإنساني في أشعارهم، من حيث الحديث عن التجارب الإنسانية في حياة الناس، والتعبير الفني عما تئنُّ به نفوس الناس من آلام وأوجاع.

والأدب الإنساني يعبر عن أفكار الإنسان وتطلعاته، وآلامه وآماله وأحاسيسه المختلفة، ولا يتحدث في فراغ، بل رافق الإنسان وتطوّر بتطوره، بعد أن كان الشاعر يعبر عن ذاته وقبيلته أصبح اليوم عن آلام الجماعة، سواء في مجتمعه الصغير الذي يعيش فيه أو علي مستوي الإنسانية كافة.

فالإنسانية بمفهومها العام هي نظرة واسعة إلي الحياة والوجود، وعلي الأخص إلي المجتمع البشري، وهو الحلم الأكبر الذي يراود الشعراء والمفكرين والفلاسفة، ومن معاني هذه الإنسانية فيما يتعلق بالجنس البشري نشر القيم السامية والمثل العليا بين الناس، ومحاربة النظم التي تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان، والعمل علي خلق مجتمع إنساني أمثل، يسوده العدل والرحمة والمحبة، وعلي تخفيف الشقاء الإنساني، وتصوير الحياة بصورة محببة إلي النفوس، وبمعني آخر المحبة الصحيحة لكل معاني الوجود بغير تفضيل أو تفريق " (١).

(١)ينظر الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر د محمد مفيد قميحة ص ٤ .

واتخذ الاتجاه الإنساني مفهومًا جديدًا يرتكز علي الإنسان بوضعه كائنًا حيًا له حق في الحياة وفي الوجود، وإن معالجة قضاياه لا تكون عن طريق الرحمة والشفقة والإحسان، بل تحولت إلي نضال مرير يخوضه الإنسان ضد القهر والتخلف وكل الشرور والمفاسد والآفات الاجتماعية من أجل بناء الإنسان الحر، والحياة الكريمة هي حق مقدّس لكل الناس علي السواء "(١).

فالأديب هو نصير الإنسانية في أوسع معانيها وأبعدها عمقًا، منارته التي تضئ له طريقه في نهر الحياة هي القلب البشري في أصالة منازعه ومشاعره، وهي القيم الإنسانية التي انتهي إليها الفكر الاجتماعي في نضجه وفي تساميه"(٢).

فغير مقبول من الشاعر مهما علا قدره وارتفعت منزلته أن ينزوي بشعره ويتقوقع داخل صومعته الذاتية، ويهجر المجتمع وينأ عن هموم وأوجاع الإنسانية من حوله، بل عليه أن يسخر موهبته الفنية التي حباهُ الله إياها لخدمة الإنسانية، ولرفع المعاناة والأسي عن كاهلها قدر المستطاع، وتضميد جراح البائسين والمعذبين في الحياة، وذلك بالكلمة الطيبة الهادفة، وبالأسلوب الفني البليغ المؤثر، وبالعاطفة الجياشة الصادقة نحو توجيه المجتمع والناس إلي مشاركة هؤلاء المحزونين البائسين من أصحاب التجارب والمواقف الإنسانية الأليمة.

(١)ينظر الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر د محمد مفيد قميحة ص ١٤.

(٢)الأدب الهادف ص ٤١.

وقد بدأ ظهور ونمو النزعة الإنسانية في الشعر العربي مع بداية العصر الحديث، بعدما أخذ الأدباء والشعراء يفكرون في جوانب النقص الشائعة في حياتنا، وانفك الشعر بعض الشيئ من القيود الذاتية، وأخذ يسبح في أجواء جديدة، بعضها سياسي وبعضها اجتماعي، وبعضها نفسي وهي أجواء لونته ألوانا حديثة لم يعهدها من قبل.

وتجلت النزعة الإنسانية لدي شعراء المهجر بصفة خاصة، كما نجده ونلحظه في شعر جبران وإيليا أبي ماضي وميخائيل نعيمة وخليل مطران وغيرهم من شعراء المهجر العربي، الذين أخذوا في تحسُّس آلام ومآسي الإنسان العربي ومشاركته تلك الآلام والأوجاع مشاركة شعرية ووجدانية صادقة ومؤثرة، وأفردوا العديد من القصائد والدواوين الشعرية التي تنادي بالمحبة والإخاء والمساواة بين الناس كافة، وإذابة الفوارق والحواجز النفسية والإجتماعية والطبقية بينهم، وتطورت فكرة النزعة الإنسانية بشكل كبير في عصر النهضة إلي عصر التنوير وبعده إلي إلي القرن العشرين حتىٰ غدت اتجاها شعريًا أصيلًا ورؤية فلسفية مستقلة.

والنزعة الإنسانية نزعة عالمية، يريد أصحابها أن تعمَّ العالم كله روابط واحدة، لا أبيض ولا أسود، ولا شرقي ولا غربي، ولا مسلم ولا مسيحي، فالعالم كله يهدف إلي الاتحاد، وينساق أصحاب هذه النزعة الإنسانية في الدعوة إلي الخير، والحضّ علي مكارم الأخلاق وإعلاء القيم الإنسانية الرفيعة، وتراهم يكثرون من بكاء الإنسانية لأن قوافلها قد ضّلت طريقها، وهي تدفع ثمن هذا الضلال بما تنحره من أبنائها علي مذبح الحروب، وما تسفكه من دمائهم، ولا ريب في أن هذه مثالية، وأنها تحلّق في خيال بعيد

لعالم لا يمكن أن يتحقق في الأرض، وفي أنفس الناس من المطامع ومن نزعات الأنانية ما يغري بعض الأمم أن تكون لها بقاع الأرض من دون أخواتها وجيرانها " (١).

وزاد الشعراء من تعمقهم وتفاعلهم الكبير مع القضايا الإنسانية والنفسية الدفينة بنفوس الناس وبخواطرهم، فلم يعد الحديث عن قضايا الإنسان قاصرًا علي القضايا والتجارب الخارجية الظاهرية، بل تعدي ذلك الأمر إلي الحديث عن الخواطر والمشاعر الإنسانية والنفسية الأليمة الدفينة العميقة، مثل الحديث عن المشاعر والخواطر النفسية المأساوية الدفينة التي تعتري بعض البؤساء والمحرومين من بعض المتاع الدنيوي الزائل، الذين ينتابهم شعور وإحساس بالحرمان أو النقص، فلا يجدون من يتعاطف معهم ولا مع نفوسهم الموجوعة سوي البعض من أصحاب النفوس المرهفة والوجدانات الصادقة من الأدباء والشعراء الذين يُسخِّرون مواهبهم الفنية وطاقاتهم الإبداعية والأدبية لخدمة هؤلاء البؤساء، والتخفيف عنهم قدر المستطاع.

ومن هؤلاء الشعراء المرهفين الصادقين الذين جاء شعرهم صدىً لكثير من التجارب والانفعالات الإنسانية المريرة التي اعتصرت أفئدة الكثير من الناس في مجتمعهم وبيئتهم شاعرنا المصري الأزهري الأصيل الأستاذ الدكتور " محمد أحمد العزب " الذي ظهرت وتجلَّت النزعة الإنسانية في

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف طبعة دار المعارف الطبعة السابعة ص ٥٨.

شعره بصورة واضحة وملفتة، وذلك من خلال حديثه الشعري العذب البديع عن مجموعة من التجارب الإنسانية المأساوية الفريدة، والتي لم نجد ولم نر لها مثيلا علي صفحات الشعر العربي الحديث.

حيث خلَّف لنا الدكتور العزب مجموعة من القصائد الشعرية الفريدة التي تناولت الحديث عن أدق وأعمق النزعات والآلام الإنسانية المريرة التي عاناها وكابدها وتجرّع غصَّتها الإنسان ذكرًا كان أوأنثي، وباستقراء وإحصاء تلك القصائد نجد أنّ المرأة قد حظيت بنصيب وافر وكبير من تلك التجارب أكثر مما حظي به الرجل.

وقد نوّع شاعرنا العزب في حديثه وعرضه لتلك التجارب وابتكر ألوانًا وأشكالًا من التناول الفني والعرض الأدبي البديع لتلك التجارب الإنسانية، فتارة كان يتحدث شاعرنا المرهف علي لسان صاحب التجربة، ويتقمص شخصيته ويندمج معه في مأساته إلي حد التمام، حتي نسينا أن هذه التجربة صاغها شاعر مبدع، وخُيل إلينا أن صاحبها هو من يحدثنا بصوته وبشخصه.

وتارة أخري كان يتحدث شاعرنا العزب بلسانه عن صاحب تلك التجربة، واصفًا مرارة آلامه وحجم مأساته التي يعانيها، مُلمًا بكل أبعاد التجربة وصورها بصورة فنية غاية في الإبداع والتأثير.

وفي الصفحات التالية نقترب من هذا الشاعر الإنساني الرقيق، ونلقي الضوء علي سيرته وحياته ومسيرته العلمية والأدبية حتىٰ تكتمل لنا معالم وجوانب تلك الشخصية الفريدة.

المبحث الأول

الدكتور محمد أحمد العزب ..حياته ومسيرته الشعرية

ولد الأستاذ الدكتور محمد أحمد العزب في قرية (ديمشلت) إحدي قري مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية لوالدين يضربان بجذورهما في تاريخ هذا القرن.

وكان مولده في الثاني عشر من مارس لعام ١٩٣٣ م، وحين شبّ الفتي عن الطوق أُلحق بمدرسة القرية وبكتّابها معًا، وكان في طليعة زملائه فيهما، وما زال يذكر أنه كان التلميذ المرشح دائمًا لإثبات جدارة المدرسة إذا زارها زائرٌ أو تنافست مع غيرها من مدارس المنطقة، وقد وُلد هذا الطفل مزودًا بعينين مليئتين بالدهشة لكل التجليات الجمالية في الكون، بدءًا من جمال الطبيعة إلي جمال المرأة، مرورًا بجمال الكلمة والفكرة والإيقاع.

وما أكثر ما فتنته الحقول والترع والأشجار العالية! وما أكثر ما فتنته الأعراس والمآتم ومدارس البنات وغدغدة الأصوات الجميلة!. وخرير الماء في الجداول الشاحبة، وصار كل هذا الجمال مخزونًا ينهل منه في شعره حي الآن.

وحين بلغ الثانية عشرة التحق بمعهد دمياط الإبتدائي، ولكنه في السنة الثالثة اعتقل، وظلّ عامًا كاملا يتنقل بين السجون والأقسام والمعتقلات التي تُوجت بمعتقل الطور، وعرف في السجن كيف أن الحرية قيمة أكبر من قيمة الخبز للإنسان، وكان إذا تناهت إليه أصوات الحيوانات الضالة في الشارع وهو في معتقله يتمني من أعماق قلبه أن يصير واحدًا منها ليتنفس هواء الحرية وحرية الهواء.

وقد تركت تجربة السجن في أعماقه ندوبًا لم يندمل إلي الآن، وكانت الحرية والحب الذي عشقه منذ طفولته بابا ونافذة في جدار الحياة المصمت الغليظ، فإذا أضيف إلي الحب والحرية الموت الذي طارده صغيرا في أبيه وفي أمه تشكلت لنا ملامح تجربته الشعرية، حتي إنه في أعماله الشعرية الكاملة ومن غير وعي كتب مدخلًا إلي عالمه الشعري، يرتكز في هذه الثلاثة الموت والحب والحرية، ثم ترددت أصداء هذه القيم في شعره خارجًا بها من مجرد البوح عن الذات إلي عالم ملئ بالصور والمعادل والخيال وروعة تجسيد المجرد، ثم طوّر هذه الأطر التعبيرية إلي أنواع شعرية تشتجر فيها الغنائية بالدرامية.

وكان التحاق الفتي بالتعليم المنظم بداية ثورة علي النمط، فكثيرًا ما هجر الكتب الدراسية الرتيبة وانساح في عوالم الشعر والكتابة الإبداعية في القصة والرواية والمسرح، والدراسات الأدبية، وكان هيامه الأول بالشعر، ولكنه بشرط أن يكون إما متمردًا ثائرًا، أو موغلًا في مجاهيل الذات وعوالمها المتشابكة، وكان الشعر بكاءه وغناءه، ومايزال الشعر علي الرغم من تقدم العمر غناءه وبكاءه.

بدأ النشر في الصحف والمجلات وهو في الثالثة الإبتدائية، وكان يمتلئ بالنشوة إذا اتهمه مدرسو اللغة العربية بالوقوع علي شعر المتنبي وأبي العلاء ظنًا منهم أن هذا الفتي الغرير لا يمكن أن يكتب هذا المستوي الشعري.

وحين التحق بدراسته الجامعية في القاهرة تفتحت أمامه فضاءات بلا حد، وكان قد فاز في المراحل الثانوية بجائزة الخطابة الحرة، التي نظمتها وزارة

الإرشاد القومي والثقافة والإعلام. وكان محكِّموها: فتحي رضوان ويحي حقي ومهدي علام، وقد دعي إليها جمهور مثقف هائل كان من بينهم كبار كتّاب وشعراء المرحلة.

المهم أن هذا الفوز أغراه بالتقدم إلي مسابقة الشعر في المجمع اللغوي، وفاز فيها وفي مسابقات المجلس الأعلي للثقافة، وظلّ محتكرًا للمركز الأول سنوات أربع، وشارك وقتها في جميع ندوات الشعر في العاصمة، وعرف باتجاهه الخاص الذي لا يستميل الجمهور بالخطابية المباشرة، وإنما بأنواع من الصور والمفارقات، وتأمل الأشياء والأحياء.

وتتابعت دواوينه الشعرية ودراساته حتي نيفت علي الثلاثين، وما تزال علي مكتبته مؤلفات أخري شعرية ونثرية لكنه يرفض أن يطرق الأبواب تسولًا للنشر، أو يطبع كعادته علي حسابه الخاص، وقد جفّ نبع ما معه، وأثقلته الحياة بمهمات أولي وأخطر، وربما اعتبر ديوانه (**الخروج علي سلطة السائد تنويعات غنادرامية**) أهم أعماله الشعرية، لأنه تخليق نوع جديد يرقص في المسافة بين الدراما والغناء.

والدكتور محمد العزب موسوعي الفكر والتأليف، من جهده العلمي والأدبي المطبوع: في الشعر: له عدة دواوين منها: أبعاد غائمة – مسافر في التاريخ – أسألكم عني – معني الأشياء – عن التعامد والانحناء في فصول الزمن الميت – فوق سلاسلي – اكتبني – تجليات شتي لامرأة ملأي بالفراشات – الغناء في شجر الجسد – أتمادي تحت سقف الكناية – تنويعات غنا درامية – الأعمال الشعرية الكاملة.

وفي دراسات الأدب والشعر والنقد له: مدارس الشعر الجاهلي – شعرية المفارقة – شياطين الشعراء – طبيعة الشعر – في الشعر الأموي – مداخل إلي الشعر الجاهلي – ظواهر التمرد في الشعر العربي الحديث – مناهج قرءاة النص – دراسات في الأدب – عن اللغة والأدب والنقد – أصول الأنواع الأدبية – في الأدب العربي – أصول التراحجم الغيرية في الأدب الحديث – قضايا نقد الشعر في التراث العربي.

وله كذلك: الأمومة والطفولة في الإسلام – الإعجاز القرآني من الوجهة التاريخية – الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية – قراءات في خيال الذاكرة الإنسانية – مساحات للمقارنة.

هذا الكم الكبير والمتنوع من الدراسات الأدبية والنقدية والإسلامية يرفعه – دون شك – إلي مصاف الأدباء المطبوعين، رغم جهده الدؤوب للارتفاع بمستوي هذه الدراسات وتطويرها، وهو شاعر مطبوع عمل علي تطوير الشعر العربي والارتقاء به.

وما يزال الشعر يتخالجه رغم تجاوزه للسبعين، مما يؤكد أن موهبته لم تكن مصادفة ولا قشرية.

إن معين إبداعه الشعري يلِّحُ عليه كلما خلا إلي نفسه، وهو خال إلي نفسه الآن بعد رحلة التعب الذي نال من شرايينه، وأقعده في البيت لسنوات ما زالت تمر بطيئة متثاقلة.

وربما كان اختياره لبلده المنصورة مناطًا لإقامته منذ عشرين عاما نبوءة بحتمية العودة إلي المنبع.

وقد أُنجز نحو عشر رسالات حول شعره ونقده بين ماجستير ودكتوراة في الأدب والنقد والبلاغة، وربما خجل أن يذكر هذا العطف الدراسي عليه بكل هذه الكثافة في جامعات أسيوط والقاهرة وعين شمس والزقازيق وإيتاي البارود وغيرها.

وتدرج شاعرنا في المناصب الجامعية حتي صار عميدًا لكلية اللغة العربية بالمنصورة، ثم أفضي إلي أستاذ متفرغ، ثم استقر الآن إلي أستاذ غير متفرغ، وقد درس في الماجستير التراجم الغيرية، وفي الدكتوراة ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر.

ويبدو أن التمرد علي الشكل والمضمون في الفن والحياة كان الوعد الدائم علي طريقه العلمي والحياتي، وليس يحزنه حتي الآن شيئ أكثر من بلادة العادة وجبرية التسليم. إن الوهج في مصباحه الشعري يستمد وجوده واستمراريته من هذا التمرد الذي يجعله يري الكون والحياة من منظوره الخاص.

وقد ساءت أحوال شاعرنا المعيشية في نهاية حياته، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت، حتي اضطر إلي بيع بيته في المنصور واستئجار شقة بشارع فيصل بالقاهرة، وذلك ليستعين بثمن بيته علي ظروفه المعيشية، ويقوي علي ثمن العلاج والدواء ليواصل أنشودة حياته.

وقامت حول شعر الدكتور محمد العزب عدة دراسات وبحوث منها:

- إسهامات محمد أحمد العزب في النقد العربي القديم (قضية التحرر والإلتزام نموذجا) للباحث خليل محمد فوزي مصطفي.

• دلالات تكرار الجملة في النص الشعري: مقاربة في شعر محمد أحمد العزب.للباحث مصطفي أحمد محمد فؤاد.

• الخطاب الشعري عند محمد أحمد العزب (دراسة تأويلية).

• الصورة البيانية في شعر الدكتور محمد أحمد العزب (رسالة ماجستير للباحث عبد البارئ إسماعيل بصل.

وقد أسلم شاعرنا العزب روحه إلي بارئها واستجاب لنداء ربِّه سنة ٢٠١١م. (١)

رحم الله الأستاذ الدكتور محمد أحمد العزب وأعلي في العالمين ذكره.

(١)نقلت هذه السيرة الذاتية من أوراق خطّها الدكتور محمد العزب بيده وهي من رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود بعنوان (الصورة البيانية في شعر الدكتور محمد أحمد العزب).

المبحث الثاني

صور التجارب الإنسانية المأساوية في شعر الدكتور العزب

تجلّت النزعة الإنسانية بصورة واضحة وكبيرة في شعر الدكتور محمد أحمد العزب، وذلك من خلال حديثه الشعري الرائق العزب عن مجموعة من التجارب والصور الإنسانية الفريدة التي لم نر لها مثيلا علي صفحات الشعر العربي الحديث من قبل.

وكان شعره صدي طبيعيًا لكثير من التجارب والانفعالات الإنسانية المريرة التي اعتصرت أفئدة البعض من الناس، وظلّت تلك المشاعر والانفعالات النفسية حبيسة ودفينة داخل نفوسهم المعذبة، لا يستطيعون البوح بآلامهم، ولا يمتلكون التعبير عن أوجاعهم، وكأنهم يترقبون يد الغوث وطوق النجاة من الشعراء الذين حباهم الله ملكة البيان وسحر القول والتعبير عن آلام الآخرين ومشاعرهم.

وخلّف لنا الشاعر الدكتور محمد العزب مجموعة من القصائد الشعرية الفريدة والمعبرة التي تناولت الحديث عن أدق وأعمق النزعات والآلام الإنسانية المريرة التي عاناها وكابدها وتجرّع غصّتها الإنسان ذكرًا كان أو أنثي.

وباستقراء وإحصاء تلك القصائد والتجارب الإنسانية في شعر الدكتور العزب نجد أن المرأة قد حظيت بنصيب وافرٍ وكبيرٍ من تلك التجارب أكثر مما حظي به الرجل.

ولم يغفل الدكتور العزب في شعره الإنساني الحديث عن الصغار والأطفال، فهم نصف الحاضر وكل الغد، فوقف بشعره وفنه علي

صرخاتهم وأوجاعهم الأليمة المخفية وراء براءة قلوبهم وضحكات وجوههم، وطاف بشعره وحلّق حول آمالهم وأحلامهم البسيطة المسلوبة منهم، وأسمع العالم والمجتمع الإنساني صرخاتهم وأصواتهم الضعيفة وسط صخب الحياة الشديد.

فكان شاعرنا العزب في هذا الاتجاه إنسانًا شاملًا وفنانًا بارعًا رسم بريشته الشعرية أدق وأعمق الصور الإنسانية المأساوية، التي لا يجيد رسمها سوىٰ شاعر مرهف الحس صادق الوجدان والعاطفة في حجم ومكانة الدكتور محمد أحمد العزب.

وقد نوّع شاعرنا العزب في حديثه وعرضه لتلك التجارب، وابتكر ألوانًا وصورًا من التناول والعرض الفني الخلاّب لها، فتارة كان يتحدث علي لسان صاحب التجربة، ويتقمصُ شخصيته، ويندمج في مأساته وآلامه، فكنا نسمع منه الصرخة والشكوىٰ وكأننا نسمعها من صاحبها الحقيقي، وتارة أخري كان يتحدث هو بلسانه عن صاحب التجربة دون تقمص للشخصية، واصفًا حجم مأساته وآلامه التي يعانيها ويكابدها.

وفي الصفحات التالية أفصِّلُ القول في استقصاء وشرح تلك التجارب الإنسانية المأساوية التي رصدها الدكتور محمد العزب في شعره، وذلك بعرض تجارب كل فئة إنسانية علي حدة، مبتدئًا بالتجربة الخاصة بالمرأة، ثم التجربة الخاصة بالرجل، ثم التجربة الخاصة بالطفل وذلك علي النحو الآتي:

الصورة الأولي

(التجارب المأساوية الخاصة بالمرأة)

حظيت المرأة بنصيب وافر وكبير في شعر الدكتور محمد العزب سواءً علي المستوي العاطفي أو الإنساني، حيث أفرد لها ديوانًا خاصًا بها أسماه (تجليات شتي لامرأة ملأي بالفراشات) إضافة إلي حضورها الكبير في سائر أعماله ودواوينه الأخري، وتحدث الدكتور العزب في شعره عن كل ما يحيط بالمرأة من مآسٍ وأوجاع، وباستقراء شعره حول تجارب المرأة نجد أنه قد تحدث عن أربع تجارب مأساوية اعتصرت بقلب المرأة وأقَضّت مضجعها وهي: مأساة العقم وعدم الإنجاب، مأساة العنوسة وتأخر الزواج، مأساة الثكولة وفقدان الابن، مأساة الفقر والحرمان.

التجربة الأولي: مأساة العقم وعدم الإنجاب

إن من أجلِّ النعم التي امتن الله تعالي بها علي عباده وأسعدها لقلب الإنسان وأقرها لعينه وأطيبها لنفسه نعمة الإنجاب والولد.

ولما كان حب الولد أمر فطري وغريزة طبيعية أودعها الله تعالي في نفوس خلقه، ربط الإنسان بين سعادته وفرحته وبين تحقيق ذلك الأمر ونيله، وبني في سبيله أمالًا وأحلامًا عريضة وواسعة، وإن تأخر أو تأجل عنه ذلك الأمر أنفق في سبيل الحصول عليه كل غالٍ وثمين، وإن هو حُرم ومنع منه ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وسكن الحزن قلبه ونفسه، حتي وإن صارت له جبال الأرض ذهبًا وفضة. إلا من شرح الله صدره للإيمان ورضي بقضاء الله تعالي وقدره، وعلي الرغم من كل ذلك تبقي مسألة العقم والحرمان من الإنجاب أمرًا يُؤرِّق حياة كل إنسان رجلًا أو امرأة، ويورثه الفكر والهم

والقلق ليل نهار، وقد يختلف وقع هذا الأمر وأثره علي نفس الرجل والمرأة، فقد يتصبر الرجل ويتقوي عليه أو قد يتناساه بعض الشيئ، بينما قد يشتد أثره ووقعه الحزين الأليم ويتضاعف علي نفس المرأة، وذلك راجع لضعفها ورقة قلبها.

واستطاع شاعرنا العزب وهو صاحب الوجدان المرهف والنفس المفعمة بالمشاعر والأحاسيس الراقية الرقيقة أن يستحضر شخصية تلك المرأة العاقر التي لم تنعم بعد بنعمة الإنجاب، وأن يلُمّ بكل حالاتها وأحوالها النفسية المضطربة الحزينة، وأن يستنطق آمالها العريضة وآلامها المريرة، ويرصد لنا تلك التجربة الإنسانية في لوحة شعرية وفنية فريدة المثال في قصيدة شعرية صدّرها بقوله: (سمِّها إن شئت بلا صدي أو خواطر عاقر). يقول في مطلعها علي لسان المرأة العاقر: (١)

جَنّ المساء ولم أزل... حيري علي الدرب البعيدْ
أتلمّس الدفء الحنو... ن يشعّ من عيني وليدْ
وأكادُ أنتهبُ الخطا.... للجر. للأمل الشهيدْ
لكنني أبدًا أعـــــو... د وفي يدي صدي النشيدْ
جنّ المساء ولم يزل.... مهد الصغير بلا صغيرْ!
لا شيئ غير حطام أمـــ.... ـــنية هناك علي السريْر
وضباب أشواق ممز..... زقة الأغاني والعبيرْ

(١)) ينظر الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور محمد أحمد العزب طبعة دار الوفاء بالمنصورة الطبعة الاولي سنة ١٤١٥ هـ -١٩٩٥ م ٦٦٨.

وطيوف آمال مبعـــ..... ـثرة علي المهد الوثيرْ

صوّر شاعرنا العزب في هذا المطلع الحائر الحزين مدي حيرة المرأة العاقر التي أضناها وأعياها البحث عن أسباب تُبددُ بها ظلام ووحشة حياتها وحدتها القاتلة، وتنعش بها جمود أيامها الباردة بدون طفل، بعد أن أعدت لهذا الأمل البعيد سريرًا ومهدًا للصغير المرجو بعيد المنال، وتأتي وتروح عليه كل مساء تتفقد فراشه الخالي لعلها تسمع فيه صوتًا أو تري فيه حركه تقطع بها سكون وجمود حياتها البائسة، ولكنها لا ترجع إلا بالسراب وضياع الأمنيات خلف الآمال والأشواق المعذبة.

ثم ينتقل الشاعر إلي مرحلة أصعب وأشد في وصف مأساة المرأة العاقر قائلًا:

عيناي ترتعشان في الـــ.... أفق المنمنم بالنجومْ
وأنا أصيخُ إلي بكـــا..... ء صغير جارتنا النئومْ
وأحسُ لذع النار في..... قلبي وولولة الغيومْ
فأصمُ سمعي دونه..... وأضيع في حلك الهمومْ
أبدًا يُحَوّمُ خلف أســـ..... تار النوافذ خاطري
متنقلًا بين المهو..... د رفاف ضمة عابرِ
فيضمها بجناحه الر..... رفاف ضمة عابرِ
ويعود مختنق اللها..... ة بدمعة المتناثرِ
وأنا مُخَبَّلةُ العـــوا..... طف أرهف الحرمان حبيِّ
إن لاح لي طفل ظمئـ... تُ إلي ابتسامته بقلبيِ
ورأيت في عينيه أشـــ..... واقي وأشواكي وجدبيِ

وصراخ أيامي المهيـ..... ـض يهز آفاقي ودربي
قلبي الذي أَوْدَي به الـ..... حرمان مشدود إليهْ
وخريف أحضاني المبعـ..... ثر في الثري باك عليهْ
ويداي باحتثان في..... ليل الشرود علي يديهْ
لو كان لي لأرقتُ أيـ..... يامي ضراعات لديهْ
لكنني أصحو وأغـ..... فو وهو ما زال ظنونا
أتراه يسرف في الدلا..... ل لكني أزيد فيه فتونا؟

في هذا المقطع البالغ التأثير يصور الشاعر مدي مأساة العاقر التي كلما سمعت بكاء طفل الجيران الذي نامت عنه أمه، في حين لا يعرف النوم سبيلًا إلي عينيها، فيزيدها هذا البكاء إحساسًا وشعورًا بالتحسر والحرمان، فلا تملك إزاء هذا البكاء الملهلب لحرقة قلبها سوي أن تسُدّ مسامعها وتذهب بها الآلام والهموم كل مذهب، فينطلق خاطرها المحزون مُحلقًا بين مهود الأطفال البيضاء المضيئة كي تقرّ عينها، ويسعد قلبها، ولكن ذلك الأمل يكون علي سبيل النظرة العابرة، والعناق السريع الذي لا يعقبه إلا اختناق العيون والمشاعر بالدموع والآهات الموجعة، وكلما رأت أمامها طفلًا تبسمت من قلبها المرهف، ولكنها بسمة تخفي وراءها أشواق وآلام مريرة ومليئة بالحرمان والافتقاد، فأخذت تضرع وترجو قدومه الميمون.

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك علي لسان العاقر وهي تخاطب طفلها المأمول بقوله:

إني أحبـــك يـــا صغيـــ ـــري خـــاطرًا حلـــوًا حنونًـــا
أفـــلا أحبـــك مـــلء أحـــ ـــضاني. تنـــاغمني اللحونـــا؟

بهـــواك لـــو أقبلـــت رف ... فـــاف العواطـــف والشـــعورِ
تنســـاب في بســـماتك الـــ ... عـــذراء أســـرار العصـــورِ
لنثـــرتُ فـــوق دروبـــك الـــ ... بيضـــاء آلاف الزهـــور
ومهـــدتُ مـــن قلبـــي لوثـــ ... بـــك ملعبًـــا ضـــاحي البكـــور
أم يـــا تـــري أني أُنـــا ... غـــمُ فيـــك وهمًـــا ضـــائعًا؟
وأعـــيشُ منـــك علـــي ربـــا الـــ ... أحـــلام حلمًـــا دامعًـــا؟
يعـــوي الفـــراغ بقلبـــي الـــذ ... ذاوي رهيبًـــا جائعًـــا؟
وأنـــا هنـــا قـــبس يغـــا ... لـــبُ في الـــدُّجون زعازعـــا؟
هـــذي أنـــا صـــوت تحطـــ ... طـــم ي حواشـــيه الصـــدي
وســـراب دنيـــا مـــن خيـــا ... لات تلقفهـــا الـــردي
وحطـــام سوســـنة تـــلا ... شـــي العطـــر فيهـــا والنـــدي
ودمـــوع ليـــل أطفـــأت ... في الـــدياجي فرقـــدًا
أأعـــيش عمـــري في ضـــبا ... ب الـــوهم بلهـــاء الرجـــاء
كـــالطيف لا غـــد لـــي ولا ... مـــاض أخلفـــه وراء؟
يـــا للجراحـــات التـــي ... تمـــتص أعمـــاقي الظمـــاء
وتلفنـــي في ليـــل آ ... لام جـــريح الكبريـــاء

في هذا المقطع يذكر الشاعر تعاقب الأيام والليالي علي المرأة العاقر فلم يزدها كرُّ الغداة ومرُّ العشي إلا فتونًا بطفلها الذي تنتظر قدومه المشرق، فطالما كانت تحلم به وهي تتهيأ لاستقباله في أبهي ما يكون الاستقبال. غير أنها لا تفيق من أحلامها الجميلة لتواجه الأوهام وتعاني الفراغ الذي لا تري فيه سوي السراب الزائف، حيث يظل اللاهث يجري وراء مخايله حتي

تنقطع أنفاسه ـ وتتبخر آماله، فتتحطم قواها وتسْوّدُ الدنيا أمامها، فتبيتُ حيري تتساءل عن جدوي حياتها الجديبة الرتيبة.

ثم يختتم الشاعر قصيدته المأساوية الباكية بمقطع حالم رقيق يتناغم فيه مع مظاهر الطبيعة والكون قائلًا:

العشـــب في صـــدر الحقـــو ... ل طفولـــــة متناغمـــــهْ
والزهـــرة الغيـــداء بنـــــ ... ت الدوحـــــة المتهاديـــــهْ
والموجـــة العـــذراء هـــم ... س اللجـــــة المترامـــــهْ
لِـــمَ لَـــمْ أكـــن خصيـــ ... ـبًـــا أو حيـــاة باقيـــهْ؟
لـــم لـــمْ أكـــن أمّـــا أرق ... قِّـــص مهـــد طفلـــي في مـــراحْ؟
وأهـــزُّه حتـــي ينـــا ... م معطـــرًا بـــرؤي الصـــباحْ؟
وأهـــيم في حلـــم شفيـــ ... ف الـــومض رفـــاف الصـــداحْ؟
جذلانـــة الآفـــاق تعـــ ... زفُ لحـــن أفراحـــي الريـــاحْ؟
أنـــا ســـوف أحيـــا في ضـــا ... ء العـــش توهـــاءَ الحنـــينْ
لكننـــي ســـأعيش حـــا ... لمـــة بأشـــواق الســـنينْ
بصـــغيري المنشـــود أو ... أقضـــي معفـــرة الجبـــينْ!!

في هذا المقطع الختامي نري الشاعر يستعين بالطبيعة ومظاهرها الخلابة المبهجة كي تشارك المرأة العاقر في مآسيها وآلامها النفسية المبرحة، حيث إنّ الطبيعة في كل مظهر من مظاهرها تعبِّرُ عن الخصوبة والنمو والامتداد ـ لذا فإن العاقر تتحسر علي حظها العقيم، حيث حُرمت من أن تنعم من ممارسة طقوس الأمومة الحانية مع طفلها، فراحت تبثُ الطبيعة شكواها وآلامها لعلها تجد في أحضانها العزاء والسلوان.

فالقصيدة كما تبدو لنا قطعة أدبية فريدة المثال في هذا الاتجاه الإنساني، عبَّر من خلالها شاعرنا الفنان بصدق وإبداع منقطع النظير عن حقيقة هذه التجربة الإنسانية البالغة التي لم تتناولها قصيدة عربية من ذي قبل، واستطاع شاعرنا أن يحلق بين حنايا قصيدته في أجواءٍ من الرومانسية الحالمة الحزينة معبرًا عن حقيقة تلك التجربة ومتغيراتها بأسلوب أدبي وفنيٰ رفيع.

والقصيدة وإن كانت ذات موضوع واحد إلا أن الشاعر استطاع بمقدرته الفنية أن يوائم بين صورها الجزئية والكلية، وأن يحفظ لها وحدتها الفنية من خلال مزج رهيف، وترابط بديع، وتسلسل محكم جعلها تظلُّ محتفظة بوحدة الأثر العام.

وقد بني شاعرنا العزب تجربته الشعرية علي عدة خصائص وسمات فنية تضافرت وتكاملت حتي اكتملت أركانها، فنراه قد استعان بجملة من الأساليب الخبرية والإنشائية للتعبير عن تجربته الشعرية، حيث استهل القصيدة بأسلوب خبري معبر في قوله:

جـــنَّ المســـاء ولـــم أزل حيـري علـي الـدرب البعيـد...

وقوله:

جـــنَّ المســـاء ولـــم يـــزل مهـــد الصـــغير بـــلا صـــغير

ويتواصل كذلك مع الأساليب الخبرية التي تأتي بالنتائج علي نحو ما نري في قوله التقريري:

فيضُمُّها... ويعود مُختَنق اللهاة...

وقد يجمع بين الخبر والإنشاء ليفضيان معًا إلي التقرير في مثل قوله:

إني أحبك يا صغيري خاطرًا.. ثم قوله مستفهمًا: أفلا أحبك ملء أحضاني؟

ويكثر شاعرنا محمد العزب من الأساليب الاستفهامية الدالة علي التحيُّر والتحسُّر وشدة الأسي الذي يبرز ويؤكدُ شدة ولهفة العاقر إلي أن تمنح وليدًا كما في قوله:

أتراه يسرفُ في الدلال...؟

وقوله:

أم يا تري أني أناغم فيك وهمًا؟

و قوله:

أأعيش عمري في ضباب الوهم؟

وقوله:

لمَ لمْ أكن أمّا أرقِّصُ طفلي في مراح؟..

وقد منح العزب تجربته من خياله ومشاعره ما جعله ينطلق بها من نطاق التقرير إلي أجواء الخيال وعوالم الأحلام والصور التي أبدع بناءها جزئية وكلية، علي نحو ما نجد في الصور البيانية المتباينة في أدائها ومدلولها، مثل التشبيه التمثيلي في قوله:

أبـــدًا يُحَـــوّمُ خلـــف أســـ تـــار النوافـــذ خـــاطري
متـــنقلًا بـــين المهـــو د رفـــاف ضـــمة عـــابر
فيضـــمها بجناحـــه الـــر رفـــاف ضـــمة عـــابر
ويعـــود مختنـــق اللهـــا ة بدمعـــة المتنـــاثر

حيث يشتمل هذا التشبيه علي ألوانٍ من التفصيل والتركيب التي تنشد الكمال في الصورة.

ونري في قوله:

هـــذي أنـــا صـــوت تحـــط طـــم ي حواشـــيه الصـــدي

نراه يقدم لنا تشبيهًا بليغًا طريفًا ذا مدلولٍ رمزي كشف به عما خفي من عنوان القصيدة التي فسرّها بعنوان مجاور لها بقوله: أو إن شئت سمها خواطر عاقر..

ويكثر شاعرنا العزب من التشبيهات المستمدة من وحي الخيال وحنايا الطبيعة ليكون لكل منها دوره بصورة ما في أداء التجربة مثل قوله: (أنا قبس... وسراب دينا... وحطام سوسنة.. وقوله: أأعيش عمري.. كالطيف...؟)

ويقدم لنا الشاعر كذلك ألوانًا من الاستعارات البليغة التي تجسد لنا العاطفة آسية أليمة، كما في قوله: حطام أمنية، وقوله: أحسّ لذع النار في قلبي.. وهما استعارتان مكنيتان، والاستعارة البديعة في قوله: (رأيت في عينيه أشواقي وأشواكي وجدبي)، حيث يصور عيني الطفل بالمرآة، وسر بلاغتها أنها لا تصور عيني الطفل بالمرآة التي تعكس صورة المظهر الذي تتصور صورته علي صفحتها، وإنما جعلها تترجم الأشواق والآلام وهي لا تتعلق بالمظهر بل بالجوهر.

ومن الاستعارات التي نسجها شاعرنا العزب بحذاقة فنية أريبة، تلك الاستعارة التي قدمها في صورة ذات أبعادٍ سيريالية إلا أنها تأتنس بأبعادٍ

اقتباسية تذكرنا بقول الله تعالي: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ (١).

يقول شاعرنا: (يعوي الفراغ بقلبي الذاوي رهيبًا جائعًا...) حيث يصور رمزية الحرمان الذي يبدو وحشا رهيبا قد سكن القلب المحروم، وهذا التصوير السريالي يبرز إحساس الإنسان بالدهشة من الوجود المحيط به، والانبهار بما يجري حوله انبهارًا مشوبًا بالقلق والحيرة "(٢)

وبجانب التصوير الاستعاري نجد بعض الصور الكنائية التي تدل علي التخبط في السير وضياع الأمل في مثل قول الشاعر: أتلمس الدفء. وقوله: الأمل الشهيد.

ويمزج الشاعر أحيانا بين الصور الجزئية والمركبة والكلية التي يؤدي كلٌ منها دوره في بناء التجربة ونموها واكتمالها. فما أوجز التصوير في قوله: (ورأيت في عينيه أشواقي وأشواكي وجدبي). وما أشمل مغزاها، وما أكثف أبعادها! إنها تقدم لنا صورة نقية بلا شوائب، إنها تقدم لنا خلاصة الشعر. وما أروع الصورة الكلية التي يمزج فيها بين الواقع والخيال، وبين الحقيقة والأحلام مزجًا يصل إلي قمة الإشعاع في مثل قوله: أم يا تري أني أناغمُ فيك وهمًا..

وأعيش منك علي ربا الأحلام.. يعوي الفراغ..؟ وأنا هنا قبسٌ يغالب..

ومن الصور المركبة التي تدل علي إحاطة الشاعر بأبعاد تجربته قوله:

---

(١)الآية ١٠ سورة القصص.

(٢)من كتاب النصوص الأدبية الحديثة أعضاء قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود ص ١٨٨. طبعة سنة ٢٠١٢.

(أنا سوف أحيا.. تتراكض الآهات.. لكنني سأعيش حالمة بأشواق السنين، بصغيري المنشود، أو أقضي معفرة الجبين..).

وبدت عاطفة شاعرنا محمد العزب في هذه القصيدة عاطفة صادقة ذات أسي نبيل، وشعور عميق جليل، لا نكاد نعرف شاعرًا عالج مثل هذه التجربة بهذا العمق الذي لا نلمح فيه تملقًا، حيث زاد من أساه فوز الطبيعة في جُلّ ألوانها وعناصرها بما افتقد في تجربته لدي العاقر المحرومة الحيري المتلهفة الممزقة.

وبني شاعرنا محمد العزب قصيدته هذه علي تفعيلة بحر " الكامل " وهو من البحور العروضية الشائعة الاستعمال والدوران في الشعر العربي علي مر العصور، وقد بني العزب قصيدته علي المجزوء من الكامل، واستخدمه مرفَّلًا ومزيّلا. حيث تصير التفعيلة مع الأول منها متفاعلان، وتصير مع الثاني متفاعلاتن. وقد أتاح هذا التطويل إضافة إلي تفعيلات هذا البحر التي أكثر فيها من استخدام حروف المد مساحة للسرد والبوح، والتنفيس عن قدر كبير من تلك الأحاسيس الآسية المكتومة التي تزاحمت في نفسه المكلومة.

التجربة الثانية: الثكل وفقد الإبن

في التجربة السابقة تحدث شاعرنا العزب عن مأساة العاقر ولهفتها الشديدة وشوقها العارم لإنجاب طفل يملأ عليها حياتها، ويُحيلُ ظلام حياتها إلي نور وضياء، وفي هذه التجربة تجربة فقد الإبن ينقلنا الشاعر ببراعة فنية وعبقرية نادرة إلي تجربة إنسانية ومأساوية أخري ذات صلة وثيقة بالتجربة الأولي، فمن تجربة المرأة العاقر التي تخاطب طيف وليدها إلي تجربة الأم الثكلي المكلومة بفقد ابنها وفلذة كبدها في إحدي المعارك التي خاضها ابنها البطل الشهيد ضد أعداء وطنه.

وشهدت البلاد في أثناء تلك المدة التي نظم خلالها شاعرنا العزب هذه القصيدة العديد من الأحداث السياسية والقتالية ضد قوىٰ الطغيان والإحتلال التي فرضت سطوتها وسيطرتها علي مصر أنذاك، حيث كان العدوان الثلاثي علي مصر وما تبعه من أحداث وصدامات عسكرية وقتالية، قدمت فيها مصر أنضر وأزكي الزهرات من شبابها وأبنائها الأبطال، الأمر الذي ترك العديد من الجراحات والمآسي في كثير من البيوت والأسر المصرية حزنًا علي شهدائهم الأبرار.

وقد ألقت تلك الأحداث بظلالها المأساوية علي مخيلة شاعرنا الدكتور محمد العزب الذي أبي إلا أن يشارك ويواسي أمهات الأبطال الذين استشهدوا في تلك المعارك البطولية فكانت قصيدة (أم الشهيد) التي نظمها وصاغها علي لسان إحدي أمهات الشهداء الأبطال اللاتي ذهبن لاستقبال أبطالهن العائدين من الحرب، لكنها لم تجد ابنها ضمن صفوف العائدين

بعد أن ترقّي وارتقي إلي مصاف الشهداء الأبرار، ورجعت هي وحدها في ليل الدموع، فيصور الشاعر مأساتها وتجرتها في قوله: (١)

عـــاد الربيـــع ولـــم يعـــدْ ... أتـــراه خلـــف الأفـــق ضـــاعْ؟
قـــد كـــان يفـــرح للربيـــع ... إذا تخطـــــي في الرِّبـــــاعْ
ويهـــيمُ عبـــر المنحـــي ... في زورق غَـــزِلِ الشـــراعْ
لِـــمَ لَـــمْ يعـــد؟ أتـــراه مـــات ... فـــلا ربيـــع ولا شـــعاع؟
ابنـــي الـــذي قـــد عشـــتُ ... في أحـــلام عودتـــه إلـــيْ
وأضـــأتُ حجرتـــه ليحيـــا ... طيفـــه أبـــدًا لـــديْ
وأرقْـــتُ فـــوقَ وســـاده دمعـــي ... وعاشـــت في يـــديْ
أســـطورةٌ كلماتـــه ... ســـيعود في فجـــر نـــديْ

.....

يبينُ الشاعرُ في هذا المطلع حيرة الأم ولهفتها بعد أن أقبل الربيعُ يحمل معه بشائر النصر والفرح التي زفّها الأبطالُ المنتصرون العائدون من المعركة، وأخذت الأمُّ الحائرة تتفقّدُ وجوه العائدين من الأبطال تبحث عن ابنها البطل، الذي ظلت تعدُّ الأيام والليالي لقدومه المبارك، وعودته سالمًا مع أقرانه، وظلت تضئ حجرته كل ليلة كما لو كان بها ليظلّ خياله وطيفه ساكنًا بها، يُذكرها به، ويعوضها عن فراقه الأليم الذي أضناها وأتعبها، وجعلها تذرف الدموع كل يوم فوق وسادته الخالية، تُصبرُ نفسها وتتمسكُ بالأمل البعيد من أجل عودته سالمًا منصورًا.

(١)الأعمال الشعرية الكاملة ص ٦٨٠.

ثم يمضي الشاعر العزب متحدثًا علي لسان الأم عن بطولة وجسارة ابنها الشهيد قائلًا:

عـــاد الربيـــع ولـــم يعـــدْ ... وهـــو الـــذي عشـــق الربـــوعْ
ومشـــي إلـــي الميـــدان يـــوم مشـــي ... وهمهـــــم في الجمـــــوع:
ســـــنعود إن عـــــاد الربيـــــع ... وأرقـــــص الطيـــــرُ الفـــــروع
ســـــنعود حـــــين تضـــــئ ... في آفاقنـــــا كـــــل الشـــــموع
حتـــــىٰ رســـــائله التـــــي ... كانـــــت تُجمِّـــــلُ لـــــي بقـــــائي
وتعيـــدُ لـــي ذكـــري لياليـــه ... وتـــــومضُ في مســـــائي
وتضـــــئ أحلامـــــي التـــــي ... عـــــدت بعودتـــــه رجـــــائي
غابـــت كغيبتـــه فلـــم تشـــرق ... علـــــي ليـــــل انطـــــوائي

.....

بعد أن أيقنت تلك الأم المكلومة الثكلي أن ابنها قد استُشهد ولن يرجع إليها مرة أخري راحت تتفاخر وتزهو ببطولته واقتحامه ساحة القتال والوغي، مقدامًا دون خوف أو تردد، ولا مبالٍ بالموت، وأبصرته قائدًا مقدامًا يصرخُ في جموع المناضلين معه من رفاقه ويحثّهم علي الثبات والنضال، ويحّهم كذلك ألا يعودوا حتي يأتوا بالربيع المزهر المضئ المنتصر، الذي يبددُ معه ظلام الحياة وذلها، ويكسر شوكة الأعداء ويقهرهم.

وتفصح كذلك عن رسائله التي كان يبعث بها إليها، والتي كانت تجدُ فيها التصبُّرُ والتحمل علي ألم فراقه عنها، وتستعيض بها عن غيبته. ولكن

سرعان ما غابت تلك الرسائل هي الأخري عنها، وانقطعت بانقطاعه عن الحياة، فاشتد عليها الأسي والألم، وتضاعف عليها الحزن والحرمان.

ثم يسجلُ الشاعر بمخيلته الشعرية أدقّ وأقسي مشاهد تلك التجربة المأساوية وهي عودة رفاقه إلي بيوتهم وعودتها وحيدة إلي بيتها دون رفقة ابنها قائلًا:

عـــــاد الرفـــــاقُ. رفاقـــــه ورجعـــت وحـــدي لا أعـــي
يبكـــي معـــي إكليـــلُ غـــارٍ كنـــــت أحملـــــهُ معـــــي
ويهـــــــــزُّ أعمـــــــــاقي رثـــــاء المشـــــقين لأدمعـــــي
ويكـــــادُ قلبـــــي أن ينـــــدَّ وأن يُحطـــــمّ أضـــــلعي

.....

ففي يوم عودة رفاقه الأبطال المنتصرين خرجت الأم المتلهفة علي ابنها البطل تحمل في يديها إكليلًا من الزهور لكي تَزِينَ به عُنقَ ابنها البطل، لكنها لم تجده بين صفوف العائدين، وراحت تسمع ممن حولها كلمات وعبارات الرثاء والعزاء الحار في ابنها الشهيد، فتفطَّر قلبُها، وتمزَّقَت ضُلُوعُها حُرقةً وحُزنًا علي استشهاده.

ثم راح الشاعر الموهوب يصور أَسَاها وحرقة قلبها الموجوع بعد عودتها إلي بيتها بدون ابنها ودخولها حجرته قائلًا:

وهناك عند العودة الخرساء... ناحت قبّرهْ
وبكي فَرَاشٌ حول... سوسنة هناك مبعثرهْ
وتصَوّحتُ خُصَلَ الجريد.. علي ضفاف المقبرة
فعدوتُ أسألُ: كيف لمْ يرجع؟ تُري ما أخَّرهْ؟

ودخلتُ حجرته. وأطفأتُ الشموع الساهدةْ
وأرقْتُ فوق ستائر الذكري.. صلاة شاردةْ
وحصدتُ كل سنابل الأضواء. إلا واحدةْ
ألفيتُ صورته الجميلة.. في سناها راقدةْ
وتألمتْ روحي.. لإطراق الظلام علي سريره
وهو الذي اخترق اللظي المحموم.. مجنونًا بنوره
فنهضتُ أعتنقُ الضياء.. وعشتُ أمرحُ في عطوره
من يومها لم يهزم الليلُ النهارَ علي ستوره

....

ما أقساها من لحظات! وما أشدها من وجيعة حينما تدخلُ الأمُ الثكلي حجرة ابنها البطل الشهيد التي زينتها بالشموع والأنوار، لكن سرعان ما أطفأتها، وأطفأت معها مصابيح البيت سوىٰ مصباحًا واحدًا تركته مضيئًا لكي ترقبُ في ضوئه صورة ابنها وخياله الذي لم يفارقها لحظة، وراحت تنظر إلي سريره الخالي الذي افترشه الظلام من بعد استشهاده، بعد أن هجر مضجعه وألقي بروحه في ساحة الوغي مقبلًا غير مدبر، حتي أشرقت بدمائه الزكية وببطولته الفائقة شمسُ النور والانتصار التي بَدَّدَت ظلام أوطانها، وعَطَّرت أنفاس حياتها.

وفي ختام القصيدة يرسم الشاعر لنا صورة بطولية للأم الثكلي الصابرة المحتسبة ابنها من الشهداء وذلك في قوله:

وغدًا إذا عاد الربيع.. فسوف ألقاه هنا
في كل سوسنة وكل عرارة في المنحني

سيعيشُ في الخصبِ الذي صنعته كفاه لنا
وسيزرعُ الآفاق فجرًا باسمًا حلوُ السنا
إن كان لم يرجع.. يُكلِلُّ رأسه غارُ الفخارْ
فقد انطوي في قبضتيه الليلُ وانبلج النهارْ
أنا حين ينتصرُ الضياء.. أعيشُ في فجر انبهار
وأري ابني المفقود حيًّا.. رغم أشباح الدمَّار

أيقنت تلك الأم الصابرة المحتسبة أنها وإن لم ترجعُ إلي دارها بصحبة ابنها المنتظر بأنه باقٍ وحي لم يمت، تستطيع أن تري وتلمسُ روحه الطاهرة وتشتم رائحته الزكية في أريج كل زهرة فيحاء باسمة رُويت بدمائه الطاهرة، وفي كل أرض خصبة مخضرة زرعتها يداهُ الأبية.

فهو وإن لم يرجعُ إليها فقد عاد ورجع إلي الحق، بعد أن أعاد إليها الحق، وطوي بيديه ظلمة الليل، وأتي بنور النهار، وستظلُ أمُّهُ وأمته مدي الدهر في عزٍ وافتخار، تزهو بسيرته وبطولته، تتقوّي وتتصبّر بقول الله تعالي: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (١)

والقصيدة كما تبدو لنا قطعة أدبية بارعة من الأدب الإنساني الرفيع، عالج من خلالها الشاعر الموهوب تجربة إنسانية ومأساوية بالغة، وواسي بها

(١)سورة آل عمران الآيات ١٦٩ – ١٧١.

قلب الأم الثكلي، التي فقدت ابنها الشهيد، الذي كان بالنسبة لها القلب النابض بالحياة، والنور الذي تبصرُ به الدنيا من حولها.

وبدت القصيدة من أولها إلي آخرها عملًا فنيًا متكاملًا، فكرتها الأساسية الأصيلة وصف تلك التجربة المأساوية الأليمة التي مرّت بها تلك الأم المكلومة الثكلي بفقد ولدها، وقد عرض الشاعر هذه الفكرة العامة وصاغها في عدة أفكارٍ جزئية مترابطة، بدت في ربطٍ منطقي متآلف، ذي جوٍ نفسيٍ مشبعٍ بالحزن والألم النفسي المرير، ومواساة بالغة، وتعاطف صادق مع تلك الأم الثكلي وصل إلي حدِ الاندماج الكامل معها في مأساتها، أشعرنا بأنه صاحب تلك التجربة والمكتوي بنارها، وذلك راجع إلي ما صاحب الشاعر في تلك التجربة من عاطفة جياشة صادقة، ورؤية إنسانية شفيفة معبرة عن حال تلك الأم وما يعتصرفؤادها من آلام وأحزان.

واستهل الشاعر قصيدته بأسلوب بديع خلاّب جمع فيه بين الخبر والإنشاء في آنٍ واحدٍ وذلك في قوله: عاد الربيع ولم يعدْ... أتراه خلف الأفق ضاعْ؟

وقد عمد الشاعر بهذا الأسلوب البليغ بالمزج والجمع بين المشاعر المتضادة المتغايرة، حيث جمع فيه بين مشاعر الفرح والسرور بعودة الربيع الذي يحمل بشائر الأمل بعودة الأبطال الغائبين المنتصرين، وبين مشاعر الألم والحزن التي خيَّمت علي قلب الأم التي لم تجد ابنها بين صفوف العائدين من المعركة.

وتأتي الأساليب الإنشائية التي استعان بها الشاعر في قصيدته كثيرًا دالةً علي شدة التحسر والأسي والحزن التي عاشتها تلك الأم، كالإستفهام الدال علي الحيرة والأسي في قوله:

لِمَ لمْ يعُد؟ أتراه قد مات، لا ربيع ولا شعاع

ومما زاد في قوة هذا الأسلوب وتأثيره مجيئه مشفوعًا بالإجابة والرد المفجع الأليم من الأم نفسها المتسائلة عن الغياب وعدم العودة. وذلك مما يشير إلي مدي الحيرة والألم والتخبط التي سيطرت علي تلك الأم إزاء صدمتها بخبر استشهاد ابنها، وحالة الصمت والذهول التي سيطرت علي من حولها، حيث لم يستطع أحدٌ أن يجيب عليها، أويريح قلبها الحائر الموجوع، فراحت هي ترد وتجيب علي نفسها بتلك الحقيقة المؤلمة المفجعة.

وجاءت بعد ذلك الأساليب الخبرية وهيمنت علي القصيدة بشكل عام، وذلك لما تحمله تلك الأساليب من إيحاءات ومدلولات تقريرية واسعة في البوح والبكاء يتناسب ونفسية الأم المكلومة الثكلي، التي راحت تفرغ وتسكب آلامها وأحزانها في جملة من الأخبار والأمور التقريرية المتعلقة بحياة ابنها الشهيد، نلحظ ذلك في قول الشاعر:

عاد الربيعُ ولم يعد... وهو الذي عشقَ الربوعْ
مشي إلي الميدان... وهمهم في الجموع:
حتي رسائله التي كانت تُجمِّلُ لي بقائي
وتعيدُ لي ذكري لياليه.. وتومضُ في مسائي
وتُضِيءُ أحلامي التي عقدت بعودته رجائي

غابت كغيبته فلم تُشرق علي ليل انطوائ [1]

ولم يغفل الشاعر المبدع وهو في زحمة الأخبار والتقارير أن يُحلقَ بمخيلته الشعرية في عالم الصور والأخيلة الفنية، التي أبدع شاعرنا العزب في بنائها وتناسقها جزئية وكلية، علي نحو ما نجد في جملة التشبيهات والاستعارات والمجازات البليغة التي احتشدت في تلك القصيدة. فمن التشبيه قوله:

حتـــــىٰ رســـــائله التـــــي كانـــت تُجمِّـــلُ لـــي بقـــائي

وتعيـــدُ لـــي ذكـــري لياليـــه وتـــــومضُ في مســـــائي

وتضـــــئ أحلامـــــي التـــــي عـــــدت بعودتـــــه رجـــــائي

غابـــت كغيبتـــه فلـــم تشـــرق علـــــي ليـــــل انطـــــوائي

حيث شبه الشاعر غياب رسائله التي كانت تري فيها صورته وتسمع من كلماتها صوته بغيابه الطويل، حيث لم تكن رسائله كأية رسائل، وإنما كانت لها النور والضياء الذي تبصر به درب الحياة من حولها، وتهوّن عليها آلام الغياب.

ثم أعقب ذلك بالإستعارة البلغية في قوله (فلم تشرق) حيث شبه تلك الرسائل التي كانت تنظرها منه بلهفة وحرقة بالشمس التي تشرق في حياتها فتبددُ معها الظلام والآلام، وتملأ قلبها نورًا وضياءً وصبرًا علي فراقه المُرّ الأليم.

ويقدم لنا الشاعر كذلك ألوانًا من الإستعارات البلغية التي تجسد عاطفة الأم الحزينة كما في قوله: (ابني الذي عشتُ في أحلام عودته..)

وقوله كذلك: (وأضأتُ حجرته ليحيا طيفه أبدًا لدي..)

(١)الأعمال الكاملة ٦٨٠.

حيث صوّر الأحلام والأمنيات الخيالية التي تراودها في غيبته بواقعٍ تعيشه وتحياه، وصوّر طيفه وخياله الذي رسمته له في ضياء نور حجرته بشخصٍ يحيا معها تراه وتسمعه.

وأتي كذلك بالصور الإستعارية البلغية التي راح يستنطقُ بها عناصر الطبيعة حولها في خيالٍ بديع مثير ومؤثر، مثل الاستعارة المكنية في قوله: (يبكي معي إكليل غارٍ كنت أحمله معي)، وقوله كذلك: (وبَكَي فَرَاشٌ حول... سوسنة هناك مبعثرهْ)، حيث أشار الشاعر بهاتين الاستعارتين إلي تعاطف الطبيعة ومواساتها لتلك الأم الثكلي في مصابها الأليم، وذلك من خلال بكاء إكليل الزهور الذي كانت تحمله معها لتستقبله به، وتعكس تلك الإستعارة في مفارقة أليمة مدي ما كانت تنتظره وتترقبه الأُمُ المكلومة من فرح وسعادة بحمل ذلك الإكليل الذي أعدّدتُه لاستقبال ابنها البطل وما استشعرته من الإكليل بعد ذلك من بكاء وحزنٍ علي مصابها.

وبجانب هذا التصوير الإستعاري الخلاّب نلحظ بعض الصور الكنائية الأخري التي تدلّ علي تجلد الأم وتغلبها علي ذلك المُصاب الأليم وذلك بإيمانها بقضاء الله تعالي وقدره، وافتخارها بما حققه ابنها الشهيد من عزٍّ وفخارٍ لها ولوطنه وذلك من خلال قول الشاعر:

فنهضتُ أعتنقُ الضياء.. وعشتُ أمرحُ في عطوره

من يومها لم يهزم الليلُ النهارَ علي ستوره

ففي هذين البيتين كناية عن الأمل الذي أحياه ابنها الشهيد البطل في نفوسهم، والحياة التي أعادها إليهم بعد جمودها وذُبولها.

ويمضي الشاعر في رسم المزيد من تلك الصور الكنائية المعبرة عن أثر الشهيد الطيب الذي صنعه ببطولته وبدمائه قائلًا:

إن كان لم يرجع.. يُكلِلُّ رأسه غارُ الفخارْ

فقد انطوي في قبضتيه الليلُ وانبلج النهارْ

ففي ذلك القول كناية عن الإنتصار والفخار الذي حققه الشهيد بدمائه الزكية الطيبة.

وقدّم لنا الشاعر هذه التجربة الإنسانية الأليمة في صياغة فنية دسمة جاءت مشفوعة بألوانٍ عفوية من صور البديع في بعض المواقف مثل حسن التقسيم والتوازن الموسيقي في قوله:

ودخلتُ حجرته. وأطفأتُ الشموع الساهدةْ

وأرقْتُ فوق ستائر الذكري.. صلاة شاردةْ

وحصدتُ كل سنابل الأضواء. إلا واحدةْ

ألفيتُ صورته الجميلة.. في سناها راقدةْ

وقد منح هذا التقسيم الحسن القصيدة مزيدًا من التنغيم الموسيقي والإيقاع الصوتي العزب الذي زاد في وضوح المعني، وشدة تأثيره في نفس السامع والمتلقي.

وكذلك الطباق بين (الليل والنهار)، الذي أشار به الشاعر إلي قوة وعِظَمِ ما قدّمه الشهيد لأهله ووطنه من عز وفخار، والطباق بين (المفقود، وحيًا)، الذي أكّد علي مدي إيمان الأم وصلابتها، وتحملها وتغلبها علي آلام ومرارة تلك المأساة القاسية، والتقابل المعنوي المكرّر في قوله (عاد الربيع ولم يعد)، والذي عمد من خلاله الشاعر علي إظهار مدي لهفة الأم وترقُّبها لعودة ذلك الربيع الذي تحلم مع عودته بعودة ابنها الغائب، ثم

سرعان ما تحوّل ذلك الحُلم إلي مأساة وفجيعة مؤلمة، وذلك حينما لم تجد عودته مع عودة ذلك الربيع.

وقد استدعت تلك الحالة البائسة التي تعيشها تلك الأم الثكلي من الشاعر الاستعانة بأسلوب السرد والإستطراد في الكلام، والذي ظهر في قوله:

ابنـــي الـــذي قـــد عشـــتُ في أحـــلام عودتـــه إلـــيْ
وأضـــأتُ حجرتـــه ليحيـــا طيفـــه أبـــدًا لـــديْ
وأرقْـــتُ فـــوقَ وســـاده دمعـــي وعاشـــت في يـــديْ
أســـطورةٌ كلماتهـــا ســـيعود في فجـــر نـــديْ

فهذا الاستطراد من قبيل البوح الحزين والتنفيس الموجع الأليم الذي استعان به الشاعر للتخفيف من وطأة تلك المأساة علي قلب الأم المفطور، والتي صدّرها الشاعر بلفظة (ابني) التي تحمل في طياتها الكثير والكثير من معاني المحبة والشفقة والرحمة التي يحملها قلب الأم لابنها، ثم تأتي جملة الأفعال الماضية في هذا المشهد (عشتُ، وأضأتُ، وأرقتُ، وعاشت)، والتي دلّت علي مدي ما كان بقلب الأم من أمنياتٍ وأحلام عريضة كانت تودُّ أن تحياها وتعيشها مع ابنها الشهيد لولا أن فاجأها القدرُ وأفجعها بموته واستشهاده.

وقد بدت عاطفة الشاعر في تلك القصيدة مفعمة بالصدق والتأثير، محملةٌ بشحناتٍ من التأثير العاطفي والوجداني الكبير، وذلك لمقدرة الشاعر الموهوب علي استحضار مكونات تلك الشخصية، ومعايشة تلك التجربة المأساوية معايشة صادقة، والاندماج فيها اندماجًا بالغًا أذاب كل الفوارق والحواجز بينه وبين الأم صاحبة تلك المأساة، وكأنه يتحدث عن نفسه، وعن مأساة يعيشها ويحياها بشخصه.

وبني شاعرنا العزب هذه القصيدة علي وزن بحر الكامل المجزوء، وهو بحر يتميز بسعته العروضية التي تعطي الشاعر مساحة واسعة للبوح والاستطراد والتنفيس عن الآلام والأوجاع.

وبهذا التناول والتعبير الفني الماتع المؤثر تظهر لنا هذا التجربة الإنسانية التي أبدع صياغتها شاعرنا العزب في قلب شعري وفني فريد في مثاله علي صفحة شعرنا العربي الحديث.

التجربة الثالثة: (تجربة العنوسة وتأخر الزواج)

يمضي بنا شاعرنا محمد العزب في تصوير ورصد تجربة إنسانية مأساوية أخري تتعلق بالمرأة وهي تجربة العنوسة وتأخر الزواج، يرصد من خلالها بعض ما يعتري الفتاة العانس التي يمضىٰ بها قطار العمر والحياة مسرعًا، ولم يطرق بابها طارق الزواج بعد من مآسٍ وآلامٍ مريرة قاتلة، حيث تذهب بها الأفكار والظنون كل مذهب، ويسبب تأخر الزواج لدي المرأة جُرحا نفسيًا غائرًا مريرًا، وذلك بسبب شدة نزوع المرأة إلي الرجل، وحاجتها إليه، ربما أكثر وأشدّث من حاجة ونزوع الرجل للمرأة، ولأن الرجل بيده طلب الزواج وطرق الأبواب وهذا أمرٌ لا تمتلكه المرأة ولا تتجرأ عليه، لضعفها وحيائها، فإذا ما تأخر قطار الزواج عنها وتقدم العمر بها دبَّ الهمُّ والحزنُ إلي قلبها، وتسلّل الفكر والقلق إلي روحها، وربما أسلمها هذا الأمر إلي يأسٍ شديد وداءٍ عضال، ومأساة بالغة.

وقد أدرك شاعرنا محمد العزب بحسه ووجدانه الإنساني المرهف حجم هذه المأساة، وأثرها البالغ في نفس الأنثي، واستطاع بعبقريته الفذة أن يلُمَّ بأبعاد وزاوايا هذه التجربة المأساوية من شتي الجوانب والاتجاهات النفسية للمرأة، وصاغها في قصيدة شعرية بالغة التأثير والتعبير عن تلك التجربة، وهي تجربة نادرة المثال في الشعر العربي، لم يتناولها شاعرٌ من قبل – علي حد علمي وقراءتي – وقد عنون شاعرنا لقصيدته بـ " خواطر عانس " وهو عنوان ذا إيحاءاتٍ ودلالاتٍ نفسية عميقة يشير إلي مدي ما يمورُ ويضطرب بنفس المرأة العانس من خواطر وأفكارٍ نفسية مؤلمة وحزينة، وقد بني شاعرنا العزب هذه التجربة علي مجموعة من الأفكار

الجزئية التي تشابكت مع بعضها البعض حتىٰ أفرزت لنا تلك اللوحة الفنية البديعة، يقول العزب:(١)

ربما يأتي.. إذا صليتُ في جنح المساءْ
ربما يأتي.. إذا صعّدتُ لله الدعاءْ
ربما يأتي... إذا رجرَجْتُ في عيني دمعهْ
أو إذا أشعلتُ في ليل الحزاني ضوء شمعهْ
ربما يأتي ينسلُّ. من خلف مَجَاهِيل المدَي
ليدقَّ البابَ.. دقاتٍ رقِيقَاتِ الصدَي
آه كم يشتاقُ بابي.. نقرات من يديهْ
وجداري الساهمُ الظمئانُ.. كم يهفو إليهْ
كلُّ ما في البيت مشدودُ الذراعين يُصلِّي
مخدَعِي الباكي.. إناءُ الزهرِ.. أحلامي وظلِّي
.....

استهل شاعرنا العزب قصيدته بفكرة تضرُّع ودعاء المرأة العانس لله تعالي بقُرب قدوم الخاطب إليها، وفيها يتحدث الشاعر الموهوب علي لسان العانس التي راحت تلتمس من الله تعالي الرجاء والدعاء أن يُعجِّل إليها مجئ الخاطب الذي طالما اشتاقت إلي قدومه الميمون، وإطراقه لباب بيتها المُوصَد الذي لم يطرقه طارق الزواج بعد، ذلك البيت الذي يترقبُ

(١)الأعمال الكاملة ص ٦٥٠.

ويشتاق هو الآخر ويشاركها بكل ما فيه من متاعٍ وأثاث اللهفة والترقب والدعاء لمجيئه المبارك الميمون.

ثم ينتقل بنا الشاعر إلي تصوير فكرة شوق ولهفة العانس لقدوم الخاطب إليها قائلًا:

حِزمةٌ من أغنيات الشوق.. في صدر البِيَانْ
تُمطرُ الليلَ نشيدًا من حنينٍ وحنانْ
مثل مَا بالرملِ.. من تَوْقٍ إلي سيْبِ المطرْ
مثل ما باللحن.. من شوقٍ إلي بَوْحِ الوترْ
مثل ما بالزورق المجروح.. من حب القرار
من لهاثِ الشوقِ.. للشاطئ في ليل البحارْ
بي إليه غير أنيِّ لا أري يومًا خطاهْ
تزرعُ الفجرَ.. علي دَربِ جِراحي لا أراهْ

في هذه الفكرة يصوِّر لنا الشاعر مدي شوق العانس ولهفتها البالغة التي تضطَّرِمُ بنفسها وتضَطَّرب معها حياتها وأحوالها، حيث إن حياتها صارت أشواقًا ملتهبة، وأمنيات حارة حائرة ومُوجِعة، وليلها طويل مكَبَّلٌ بالهموم والأحزان، لا يقطعُ سكونه إلا أناشيدُ الحب والحنين إلي قدوم ذلك الخاطب المنتظر، الذي تتوقُ العانسُ وتشتاق إليه شوق حباتِ الرمال اليابسة لقطرات المطر الندي الذي يُحييها ويرطِّبُ حياتها الجامدة، وشوق اللحن للوتر، وشوق الزورق الضعيف الحائر بين لُجج المياه المتلاطمة إلي شاطئ البر والأمان والاستقرار.

.....

ثم يمضي بنا الشاعر إلي فكرة أخري يكشفُ لنا من خلالها عن بعض مظاهر الأسي والمعاناة التي تعيشها وتحياها العانس قائلًا:

خلف بابي ألف حلمٍ.. يخنق الوهمُ صداها
ألف غصنٍ يحرق الجدبُ براعيم صباها
وسريري.. كم علي صدر سريري بِتُّ عبْريَ
أحضنُ اللاشئ.. أمتصُّ عذاباتي حَيرَيَ
أمضَغُ الآهات.. في صمتٍ ضَريرٍ لا يَبِينْ
مثلُ طيرٍ راسفٍ في القيدِ مجروحُ الأنينْ
أتمني في ظلالِ الصمتِ أطيافَ لقاءْ
تحتَ كَرْمٍ هاربٍ.. خلف متَاهَاتِ الفضاءْ
أرتمِي تحت خُطَاه.. طَفلةَ الشوق سليبهْ
وهو يدعوني.. إلي دنيا انطلاقاتٍ غريبهْ
.....

في هذا المقطع يرصد لنا شاعرنا العزب صورًا من الأسي والمعاناة التي تعيشها المرأة العانس، ما بين الأوهام المؤلمة والأفكار الحائرة التي تَقُضُّ مضجعها، والأحلامِ المفجعة التي تراودها إن هي استرقت في ليلها المهموم أوقاتًا للراحة والنوم، فهي دائمة الهمِّ والأسي، تسكبُ علي سريرها الأوجاع والدموع، وتتقَلّبُ علي فراشها وكأنه جمرٌ موقدٌ ملتهب، تبتلع الآهات الموجعة دون أن تقدر علي البوح بها أو الإفصاح عنها، شأنها كالطير المغلول الذي يرسفُ في قيوده لا يملك من أمر نفسه شيئًا. وهي وسط تلك الآلام والمآسي التي تعيشها تأمل في لقاءٍ مع ذلك الخاطب ولو

في عالم الخيال والأحلام، لعلها تجدُ فيه راحة وسلامًا عن واقعها المؤسف المرير.

ثم يحلِّق بنا الشاعر إلي فكرة أخري وهي مخاطبة المرأة العانس لفارسها المجهول قائلًا:

فارسي الموعود.. يا حُلمِي.. ويا فَجرِي الظَّمِي
أذرُعِي تدعُوك.. من خلف الضَبَابِ المُعَتّمِ
أذرعي المَصْلُوبة العذراء.. تدعوك.. فهياً
كُنْ كما شئت.. إذا أقبلت صَلدًا.. أو سخياّ
الذي أشتاقه أن تطرق الباب وتدخلْ
باحثًا عني.. عن الكَرْمِ الذي أوشَكَ يذُبلْ
آهٍ كم أعبدُ.. أن تسأل عنيِّ.. عن شرودي
فأنا ما زلتُ أشتاق سؤالًا عن وجودي
لا تدعني أقطعُ العمرَ سؤالًا ما سئلت
فأنا أُنثَي عشقتُ الحبَّ.. لكنني حُرمتُ

في هذا المقطع البارع يصفُ الشاعر مناجاة العانس وندائها علي فارسها الذي تأمله وترجاه لكي يُبدِّد ظلام حياتها، وتتعجّلُ قدومه الميمون في أي صورة وعلي أي حالٍ يأتي دون قيد أو شرط، ليدرك شبابها قبل أن يذبُلَ وينزوي، فهي بدون قدومه إليها لا تجدُ لذةً لحياتها ولا لوجودها، ولا مرفأً لحيرتها وشرودها، فهي الأنثي التي خُلقت للحب لكنها لم تجدهُ بعد.

ثم يأتي الشاعر بفكرة أخري تزيدُ من مأساة المرأة العانس وهي أنّ نظرتها للمتزوجة حولها أمرٌ يزيد من آلامها ويضاعف في مأساتها، وفي ذلك يقول الشاعر:

فارِسِي.. ليلُ رفيقاتي مَرَاحٌ وصَداحْ
وأنا ليلي رياحٌ.. وجراحٌ.. ونُواحْ
كل سَوسَانة حقلٍ.. صادفت في الحقل طيرًا
يملأ الأفق حواليها أغاريدَ وشعرا
وشبابي وردة عذراء.. نامت مقلتَاهَا
فوق حلمٍ هارب الأطياف يمتص شذاها

في هذه الفقرة يتحدث شاعرنا العزب علي لسان العانس وهي تصف ليل رفيقاتها من المتزوجات الذي يضُجُّ بالغناء والأفراح، حيث تهنأ كل أنثي متزوجة مع بعلها الذي يمتَصُّ شُذاها الفياح، ويملأ حياتها بهجة وأُنسًا، بينما ليلها ملَبَّدٌ بالغيوم والمآسي والأحزان، تري زهرة شبابها في ضعفٍ وذبول، وهي في وحدتها ومأساتها بلا أنيس أو جليس.

ثم يأتي الشاعر بعد ذلك بفكرة أخري أشبه بالحكي والسرد عن رحلة البحث الخيالية المضنية التي قضَتْها العانسُ بحثًا عن فتاها المجهول وعن رسم صورة له ولأوصافه قائلًا:

كم علي صدر ظنوني البِيض.. نقَّلْتُ خُطاياَ
كم زرعتُ الغيبَ.. والمجهول بحثًا عن فتايا
كم تراءي لي.. وراء الليل أُسطورة حبِّ
قصة مجنونة.. الأشواق ترتُّج بقلبي
عاشقًا ينسلُّ كالإعصار.. يجتاحُ جليدي

يزرعُ النجمات في صيفي.. وفي ليلي الوحيدِ
فارسًا يأتي وفي عينيه إطلالةُ شوقِ
وعلي أهدابه لوني.. وإيماءةُ ذوقي
كم تراءي لي.. وكم قبَّلتُ في الصمتِ جبينهْ
وحنيني كم مشي في التيه.. يستجدي حنينهْ
وبعينِ اليأسِ والحرمانِ في ليلي أراهْ
فارعًا كالسروْ ممشُوقًا وسيمًا يا إلهْ
مقلتاه خيمتا سحْرٍ.. ونبعا ذكرياتْ
وغديرٌ فوق شطيه.. تصلي الأغنياتْ
وعلي كفيه.. عُشٌّ مثلما أشتاقُ بيتي
يتراءي فيه عصفوران.. في رعشة صمتِ

في هذه الفقرة رصدُ شاعرنا العزب رحلة الأسي والضني التي عاشتها وقضتها الفتاة العانس في عالمها الخيالي تبحث عن فتاها وفارس أحلامها المجهول وسط غياهب الليل وأوهام النهار، وهي تنسج بخيالها قصة حبٍ تعيشها مع فتاها المجهول الذي رسمت له صورة من خيالها تأملها فيه، حيث تراه بخيالها عاشقًا متيَّمًا يقتحمُ دنياها الجامدةُ، يُبددُ بسيف عشقه ظلام حياتها، ويُنهِي حيرتها وأساها، وتراه فارسًا ترتسمُ علي ملامحه صورتها وأحلامها، فهو حاضرٌ دائمًا في ذهنها وخيالها، تقبلُ جبينه، وتلمسُ حنانه وحنينه، وتراه وتهواه في خيالها البائس الحزين فارعًا طويلًا، ممشوق القوام معتدل البنيان، كشجر السَرْوِ الطويل الجميل، له عينان

ساحرتان، تمتلئان بالذكريات والأغنيات، وتحلُمُ معه ببيتٍ تنعم فيه معه بالمودة والرحمة والسكن.

ثم يختتم الشاعر قصيدته بفكرة الغياب والحرمان لا يحجبان الأمل في مجيئه، وفيها يقول:

ويدقُّ الصبحُ شباكي.. ولا الفارسُ جاءْ
لا.. ولا شالتْ ستاري كفُّه عبْر المساءْ
الفراغُ الجهمُ من حولي.. وأحلامي الشهيدهْ
وبقايا وردة.. في حجرتي.. ماتت وحيدهْ
غير أني خلف قضباني.. سأدعوه طويلًا
ربما صادفت فيه فارسًا.. شهمًا نبيلًا
ربما ينسلُّ من خلف مجاهيل المّدي
ليدقَّ الباب دقاتٍ.. رقيقات الصدي

فعلي الرغم من مشاعر اليأس والحرمان التي تعيشها تلك العانس، وحالة الجمود والبرود العاطفي التي تعيشها وتحياها غير أنها لن تيأس من قدومه إليها يومًا ما، وستظلُّ تستمسكُ بالأمل في مجئي يومٍ سعيد يطرقُ فيه باب بيتها ليعيدَ إلي قلبها البهجة والحياة، ويملأ فراغ أيامها محبةً وسلام.

والقصيدة كما نري ذات موضوع واحد وهو وصف مأساة المرأة العانس، التي تعيش وحيدة معذبةً وحبيسةً خلف أمنيات وأحلام قدوم فتي أحلامها، الذي عقّدّت علي مجيئه الآمال العريضة والأمنيات الحالمة لحياة سعيدة وهانئة.

وقد اشتملت القصيدة علي عدة صورٍ جزئية وكلية، اتسمت بالتسلسل والترابط المحكم التام بينها، ذلك الترابط والتسلسل الذي أدي إلي احتفاظها بوحدة الأثر العام.

وقد أبدع شاعرنا العزب أيما إبداعٍ في تصوير ورصد أبعاد تلك المأساة الإنسانية البالغة، وأفرغ فيها طاقاته الفنية والإبداعية المتفجرة حتىٰ ظهرت لنا تلك اللوحة الفنية البديعة مكتملة الجوانب والخصائص الفنية والأدبية العالية. فجاءت لغة الشاعر في هذه القصيدة طيعةٍ وقريبة، وأفكاره مرتبةً ومتآخية،، آخذة كل فكرة بحجز التي تليها في تسلسل منطقي منظم، وانسابت شاعريته في رقةٍ وعذوبة متناهية.

وجاءت معظم ألفاظ القصيدة ومفرداتها مستوحاة من مظاهر بيئة وبيت المرأة العانس التي تحلمُ بالخاطب وتترقبُ قدومه، مثل مفردات (بابي، جداري، البيت، مخدعي، إناء الزهر، سريري، بيتي، شباكي، قضباني)، وفي ذلك إيحاءٌ بأن مأساة تلك العانس كانت مأساة داخلية وحبيسة داخل صدرها ونفسيتها، لا تستطيع البوح بها أو التنفيث عنها خارج نفسيتها أو جدران بيتها، وذلك مما ضاعف من حجم مأساتها وزاد من شدة ألمها.

وظهرت في تلك القصيدة عبقرية الشاعر العزب اللغوية في ابتكاره لبعض التعبيرات والتراكيب اللغوية وافتراعه للمعاني الغير مألوفة كما في مثل تعبيراته (أمتصُ عذاباتي، أمضغ الآهات، خيمتا سحر، أحضن اللاشئي).

وعانق الشاعر في تلك القصيدة المأساوية بين أمنيات العانس البائسة المحطمة وبين مظاهر الطبيعة المبهجة وذلك في استخدامه واكثاره من مفردات ومظاهر الطبيعة حولها مثل: (إناء الزهر، سيب المطر، الزورق،

الشاطئ، البحار، سوسنة حقل، الطير، النجمات، الإعصار، الجليد، خيمتا سحر، غدير، عصفوران، الصبح، الليل).

ويلجأ الشاعر كثيرا إلي تكرار الأسلوب المصدّربكم الخبرية التكثيرية وذلك في مثل أقواله:

آم كم يشتاق بابي نقرات من يديه
وجداري الساهمُ الظمئان كم يهفو إليه
آه كم أعبد أن تسأل عني عن شرودي
كم علي صدر ظنوني البيض نقّلتُ خطايا
كم زرعتُ الغيب والمجهول بحثًا عن فتايا
كم تراءىٰ لي وراء الليل أسطورة حب
كم تراءىٰ لي وكم قبّلتُ في الصمت جبينه

وقد أفاد تكرار ذلك الأسلوب كثرة ما تعانيه العانس من مآسٍ وآلام، وما تكابده من أشواقٍ وأمنياتٍ حارةٍ موجعة تجاه فارس أحلامها الغائب الذي تترجاه وتترقبه.

وتزاحمت في القصيدة الأساليب والصور الخيالية والبيانية بشكل واضح وكبير، وفي ذلك إشارة إلي محاولة هروب الشاعر من عالمه الواقعي البائس إلي عالمٍ آخر من الأحلام والخيالات، وهذا مما يتطلب الاستعانة بالصور الخيالية المعبرة كما نلحظ في قوله:

كلُّ ما في البيت مشدودُ الذراعين يُصلِّي
مخدَعِي الباكي.. إناءُ الزهرِ.. أحلامي وظلِّي

ففيه كناية عن مشاركة وتعاطف كل ما حول العانس معها في مأساتها وآلامها، والاستعارة المكنية التي صوّرت المخدع وإناء الزهر بإنسان له ذراعين يصلي ويبكي ويتعاطف معها، ويضرعُ إلي الله تعالي بالصلاة والدعاء.

وبرع الشاعر في رسم صورة بيانية معبرة بالتشبيه التمثيلي المركب في قوله:

حِزمةٌ من أغنيات الشوق.. في صدر البِيَانْ
تُمطرُ الليلَ نشيدًا من حنينٍ وحنانْ
مثل مَا بالرملِ.. من تَوْقٍ إلي سيْبِ المطرْ
مثل ما باللحن.. من شوقٍ إلي بَوْحِ الوترْ
مثل ما بالزورق المجروح.. من حب القرارْ
من لهاثِ الشوقِ.. للشاطئ في ليل البحارْ

حيث شبه شدة شوق العانس وحنينها إلي فتاها المأمول بشوق الرمل اليابس الظمئان إلي ماء المطر، وفيه كذلك استعارة مكنية حيث شبه أغاني الشوق بالسحابة الممطرة، وحذف المشبه به السحابة وجاء بما يلازمها وهي (تمطر) وشبه شدة الشوق كذلك بشوق اللحن إلي صوت الوتر، وبشوق الزورق الحائر التائه في ظلمة البحر إلي شاطئ النجاة والاستقرار. وهي جملة من التشبيهات المركبة البليغة التي أكسبت المعني جمالا وقوة وتأثيرًا، ودّلت علي مدي حيرة المرأة العانس، وجفاف حياتها، وصمت ليلها، ودوام حيرتها.

ويقدم لنا شاعرنا العزب ألوانًا من الاستعارات البليغة التي تجسد لنا مدي حرقة قلب العانس ولذعة الشوق والحنين بصدرها، مثل الاستعارة في قوله: (أحضن اللاشئ، وأمتص عذاباتي حيري)، حيث صوّر مرارة الشوق وعذاب الحرمان بالماء الحار الكريه الشديد الذي تتجرعه العانس لكي يطفئ ظمأها ونارها فما يزيدها إلا حرقة وجوىٰ وأسي.

ثم نراه يأتي بمزيد من الأوصاف والأساليب الدالة علي شدة الألم ومرارة الحرمان فيأتي بالكناية والتشبيه مجتمعان في قوله:

أمضَغُ الآهات.. في صمتٍ ضَريرٍ لا يَبِينْ
مثلُ طيرٍ راسفٍ في القيدِ مجروحُ الأنينْ

ففي قوله: (أمضغ الآهات) كناية عن تجرع العانس مرارة الأسي والحرمان والحنين والشوق لفتاها المرتجي. ثم أتي بالتشبيه التمثيلي الذي صوّر به حرقة الأسي الصامت والعذاب المحبوس في قلب العانس التي لا تستطيع البوح أو الإفضاء به بطائر جريح مغلول لا يستطيع الخلاص أو الفكاك من قيده، ولا يبرأ من جرحه وألمه، وقد عكست هذه الصورة الفنية شدة العذاب والأسي الذي تكابده العانس وتحياه دون أمل في الفكاك أو الخلاص منه.

ومن الصور البيانية كذلك في القصيدة التشبيه البليغ المتعدد في قول الشاعر:

فارِسِي.. ليلُ رفيقاتي مَرَاحٌ وصَداحْ
وأنا ليلي رياحٌ.. وجراحٌ.. ونُواحْ
كل سَوسَانة حقلٍ.. صادفت في الحقل طيرًا

يملأ الأفق حواليها أغاريدَ وشعرا
وشبابي وردة عذراء.. نامت مقلتَاهَا
فوق حلمٍ هارب الأطياف يمتص شذاها

حيث صوّر الشاعر في هذه المقطع ليل رفيقات العانس المتزوجات بليل حافل بالمرح والفرح، بينما ليلها ليل شقاء وأسىٰ وبكاء. ثم صعّد من فنية التشبيه وأثره البالغ في رسم تلك الصورة فصوّر المرأة المتزوجة بالزهرة الفيحاء النضرة التي يلتف حولها الطير ينشد الأغاريد والأشعار فرحًا طروبًا، بينما صوّر شباب العانس بالوردة اليابسة الموحشة التي توشك أن تذبل وتهلك.

وهي صورة كما نري تشبيه مركب متعدد المشبه به دلت علي مدي ما وصلت إليه العانس من يأس وبؤس في الحياة مقارنة بحياة من سواها من المتزوجات اللائىٰ ينعمن بالهناء والأنس والفرح مع أزواجهن.

ويزيد الشاعر من الاستعانة بصور التشبيه والتمثيل فيأتي بالتشبيه المفروق وذلك في معرض تصوير الشاعر لهيئة وصفة فارس أحلام العانس الذي تهواه وذلك في قوله:

وبعينِ اليأسِ والحرمانِ في ليلي أراهْ
فارعًا كالسروْ ممشُوقًا وسيمًا يا إلهْ
مقلتاه خيمتا سحْرٍ.. ونبعا ذكرياتْ
وغديرٌ فوق شطيه.. تصلي الأغنياتْ

فهي تتمناه وتهواه بقلبها اليائس المحطم طويل البنيان ممشوق القوام جميلا، وشبّه طوله بطول السرو، وشبه عينيه بالخيمتين في الأمان

والاحتواء، وبغدير الماء في البذل والعطاء. وهي تشبيهات كما نري مستوحاة من وحي الخيال وحنايا الطبيعة التي شاركت العانس مأساتها وآلامها.

وبني العزب قصيدته هذه علي وزن بحر الرمل المجزوء، وجاء بالقافية متنوعة ومتغايرة في كل فقرة، وكأننا به بهذه النقلات العروضية يهيئ العزب نفسه للإنتقال كلية بشعره وفنه إلي الشعر الحر الجديد الذي التزم به وسار عليه بعد ذلك في غالبية قصائده وأشعاره.

التجربة الرابعة: مأساة الخادمة

ومن التجارب الإنسانية المأساوية كذلك التي تعرض لها شاعرنا محمد العزب في شعره تجربته الشعرية في وصف مأساة الفتاة الخادمة التي تعمل في أحد بيوت الأثرياء، وظلّت في مهنتها المتواضعة راضية قانعة بها غير ساخطة، وغير مكترثة بما تلقاه فيها من متاعب وآلام.

وهي كسائر البشر تحمل في صدرها قلبًا مرهفًا مفعمًا بالمشاعر والأحاسيس، فهي تحب وتكره، وتفرح وتغضب، وترضي وتسخط، غير أنها تتعرض لمأساة نفسية قاسية ومريرة، وذلك يوم أن ارتدت تلك الفتاة فستانًا جديدا، وانطلقت به في زهو وخيلاء، تجري وتمرح به في الشوارع مزهوة سعيدة، تتطلع في أعين من يبصرونها به نظرة الإطراء والإعجاب، وتتلهف وتترقب من أفواههم كلمة ثناء أوتهنئة بهذا الفستان الجديد، غير أنها لا تلقي ممن يراها سوىٰ الإعراض والجفاء، واللامبالاة بما ترتديه من فستان جديد وجميل، مما كان لهذا التجاهل أثرًا سيئًا علي نفسها وقلبها، وأفقدها الإحساس بقيمتها وأهميتها في الحياة.

وقد أثارت تلك المأساة نفس شاعرنا العزب وهو الإنسان المرهف الوجدان والأحاسيس، وأوقدت جذوة الشاعرية بنفسه، وتعاطف مع تلك الخادمة في مأساتها الإنسانية، مبدعًا قصيدته الرائعة التي أسماها (الخادمة وفستانها الجديد) وفيها يقول: (١)

" فستاني " سبعة ألوان.. ما أجمل لون الفستان!

(١) الأعمال الكاملة لمحمد العزب ص ٦٤٣.

تمتدُّ خيوطٌ منه تداعب رَبْوَة صدري الجوعان
ويلفُّ.. يلفُّ علي خصري.. نزقًا كالطفل النشوان
وإذا أمشي تتهدّل منه.. شُفوفُ ربيعٍ فتّان
وأنا أرقبه. أتحسّي.. فيه حرمان الحرمان
جَوعَي والخصبُ.. ربيع الأرض مشاتلُ وردٍ ريّان
والجوعُ هنا جوع الإنسان.. لنبضة حبٍ وحنان
فستاني يا أجمل لونٍ.. غنَّي لمسائي اليقظان
هل تدري؟ في توقي للقائك.. جبتُ فضاءَ الأكوان
عانقتُ الحبَّ وعانقني.. ورفضتُ ألوف الفرسان
وحلمتُ بمن يهواك عليّ.. بمن يسترحمُ أحضاني
لكنك يا فستاني جئتَ.. وأرهق يومُك وجداني
فالشارع كان يمورُ.. وليس يحسُّ برجفة بركاني
لم يشهق دربٌ لم يشهق بشرٌ بنشيد استحسان
لم تقف الأعين ذاهلةً.. لم تجمد حتىٰ لثوانىٰ
فتهدَّم قلبي وارتعشت.. أبعادُ مكاني وزمانىٰ
وعدوتُ عدوتُ لسيدتي.. أبكي وتولولُ أحزانىٰ
لأقول لها يا سيدتي.. ما أقبحَ لون الفستانِ
قولي: هل مات الضوء؟ وهل بُهتت ألوان الألوان؟
ما أحدٌ أطراه أبدًا.. لم يشعر أحدٌ بمكاني
وتقهقه سيدتي فتريق.. شعاعَ الضوء بأجفاني
وأصيحُ عرفتُ عرفتُ حقيقة جرحىٰ.. فورة غثياني

فستاني حلوٌ لكنّىٰ.. أنا فيه بقايا إنسانِ

جسّدت لنا تلك القصيدة الرائعة التي أبدعها شاعرنا محمد العزب بحسِّه المرهف ووجدانه الإنساني الصادق ملامح وأبعاد تجربة مأساوية خاصة وفريدة، إنها مأساة من نوع فريد وشفيف، مأساة لم تتدخل الآجال ولا المقادير في صنعها كما كان الحال في التجارب الثلاث السابقة (العقم، والثكلُ، والعنوسة)، وإنما هي تجربة صُنعت مأساتها ونُسجت خيوطها السوداء المظلمة من جحود الإنسان لأخيه الإنسان، وإعراضه عنه، وتعالي البعض من البشر علي إخوانهم من الضعفاء والمنكسرين، الذين لا يرجون منهم سوىٰ البسمة الصافية، والكلمة الطيبة الحانية، التي تُحْيِ الأمل بنفوسهم المعذبة، وتضئ دروب حياتهم المظلمة، وتعوضهم عن فقرهم وحرمانهم في الحياة.

فما أن ارتدت تلك الخادمة البائسة فستانًا جديدًا ذا ألوانٍ كثيرة مبهجة، وخيوطٍ رقيقة ناعمة، أزالت به جفوة حياتها، وجوع أيامها، فانطلقت به والفرحة تغمرُ قلبها، تلهو وتمرح به مثل الأطفال تيهًا وابتهاجًا بحسنه وجماله، بعد شوق وانتظار طويل لمثل هذا اليوم الذي ترتدي فيه ذلك الفستان الجديد لكي تخطف به قلوب وأنظار من حولها، ممن اعتادوا تجاهلها وعدم الاكتراث بوجودها معهم. لعلها تحظي منهم بعد رؤية هذا الفستان الجديد علي جسدها بكلمة إطراء أو إعجاب بحسنه وجماله، لكنها فوجئت بما لم يكن في الحسبان أبدًا، بعد رأت منهم الإنكار والتجاهل، والإهمال لها ولفستانها الجديد، ما جعلها تعود مهرولة إلي سيدتها متسائلة متعجبة من هذا الإعراض والجفاء من الناس، أهو بسبب بهتان ألوان الفستان وانطفاء بريقه؟ غير أن سيدتها سخرت منها وضحكت من تعجبها من هذا الإعراض والجفاء من الناس، حتىٰ هدأت ثورة الخادمة

البائسة، وعلمت بأن زهرة شبابها قد ذبُلت، وبريق حياتها قد انطفأ، ولم يعد يغير فيها فستانٌ ولا ألوان، بعد أن تصدّع بنيان حياتها، وانكسر خاطرها، ولم يتبق فيها سوىٰ صورة العظم والدم.

والقصيدة كما تبدو لنا تجربة طريفة وجديدة، عالجت مأساة إنسانية لفئة مهملة ومهمشة في الحياة، قلّما يلتفت لها أحد من الناس، أو يعبأ بمشاعرها وأوجاعها إنسان، بل قد يظن البعض أنها فئة خاوية من المشاعر والأحاسيس، بسبب ما يقوم به أصاحبها من حرف وأعمال.

واستطاع شاعرنا العزب أن يتعاطف مع تلك الخادمة تعاطفًا وصل إلي درجة الإندماج والإنصهار في مأساتها وجرحها العميق، وتلك عبقرية نادرة المثال، تجلّت في مقدرة الشاعر في تنوع الشخصيات وتباين الفئات التي تحدث عنها وعن مآسيها في الحياة.

وبدت القصيدة في بدايتها متسمة بالإتزان والإنسجام النفسي، ثم سرعان ما دبّ إلي أجوائها القلق والإضطراب الظاهري، وذلك راجع إلي المفارقة الوجدانية التي صنعها الشاعر المبدع، حيث جمع بين حالتين متناقضتين في القصيدة، حالة النشوة والفرح التي عاشتها الخادمة في مطلع القصيدة، بعد أن ارتدت فستانها الجديد، ثم حالة الإحباط واليأس التي خيمت عليها بعد ذلك إثر الجحود والجفاء الذي لاقته ورأته من الناس حولها.

وغلب علي القصيدة أسلوب السرد والحوار الذي أجراه الشاعر بين الخادمة والفستان، ومزج فيها بين أساليب الخبر والإنشاء، فمن صور الخبر قوله:

" فستاني " سبعة ألوان.. ما أجمل لون الفستان

ومن صور الإنشاء الذي جمع فيه الشاعر بين النداء والأمر والإستفهام قوله:

فستاني يا أجمل لونٍ.. غنَّي لمسائي اليقظان

هل تدري؟ في توقي للقائك.. جبتُ فضاءَ الأكوان

وهو ما يعكس لنا حالة النشوة والفرح التي عاشتها الخادمة وقت ارتدائها فستانها الجديد، الذىٰ راحت تناغيه وتناديه في تشخيص فني بليغ أظهر حالة من الإنسجام والتناغم بين الخادمة والفستان.

ومنح الشاعر كذلك تجربته بعضًا من خياله ومشاعره محلقًا بها إلي أجواء من الخيال والتصوير الفني البليغ، فنري التشخيص الفني في قوله:

تمتدُّ خيوطٌ منه تداعب رَبْوَة صدري الجوعان

ثم أعقبه بالتشبيه البليغ في قوله:

ويلفُّ.. يلفُّ علي خصري.. نزقًا كالطفل النشوان

حيث شبه فرحة التفاف الفستان علي جسدها بالطفل الفرح المسرور وهو يعكس مدىٰ فرحة الخادمة بفستانها الجديد وانتشائها به.

ويرسم لنا الشاعر كذلك صورة فنية مبتكرة من خياله وذلك في قوله:

وأنا أرقبه. أتحسّي.. فيه حرمان الحرمان

جَوعَي والخصبُ.. ربيع الأرض مشاتلُ وردٍ ريّان

والجوعُ هنا جوع الإنسان.. لنبضة حبٍ وحنان

حيث عدل في هذه الفقرة عن مفهوم الجوع الحقيقىٰ المعروف الذي هو شدة الحاجة والرغبة إلي الطعام والشراب إلي مفهوم وجداني ومعنوي آخر وهو حاجة الإنسان وشوقه إلي سماع كلمة ثناء أو إطراء ممن حوله علي شئ يفعله أو علي شئ يمتلكه.

ويظهر كذلك التجسيد الفني في قول الشاعر: (فتهدَّم قلبي وارتعشت.. أبعادُ مكاني وزمانيْ)

وصوّر من خلاله الشاعر قلب الخادمة ببيتٍ تصدّع وتهدّم إثر ما تعرض له من يأس وإحباط من الآخرين، بعد أن مكث وقتًا عامرًا بالسعادة والفرح.

وهكذا بدت تلك القصيدة في صورتها العامة صرخة أملٍ وألمٍ في آنٍ واحد انتابت تلك الخادمة البائسة اليائسة، التي راودتها مشاعر الفرح والغبطة والسرور، لكن سرعان ما تحولت إلي حالةٍ من اليأس والإحباط والألم.

الصورة الثانية: التجارب الإنسانية الخاصة بالرجل

التجربة الأولي :مأساة الفرار والتهجير عن الوطن

شهدت الفترة التي عاشها شاعرنا الدكتور محمد العزب العديد من الحروب والصراعات العسكرية، وعدوان بعض القوي الإستعمارية الكبري علي مصر وبعض البلدان العربية مما كان له أثرٌ كبير في نزوح البعض عن أوطانهم والعيش خارج حدوده في مخيماتٍ للاجئين علي حدود الدول المجاورة، وذلك فرارًا من نير الحروب، وبطش المحتلين الذين لا يفرقون في عدوانهم بين عسكريين ومدنيين.

ورصد شاعرنا العزب تجربة إنسانية مأساوية لأحد هؤلاء اللاجئين الذين تركوا أوطانهم ولاذوا بالفرار منها، وعاشوا في مخيمات اللاجئين، التي لاقوا فيها صنوفًا من الأذي والألم والإغتراب النفسي المري، ما جعلهم يبكون ويتحرقون شوقًا وحنينًا إلي أوطانهم المسلوبة.

وكان كلما اقترب فصل الشتاء علي هؤلاء اللاجئين ازدات مخاوفهم وثقلت همومهم وأحزانهم، وذلك لما يحمله الشتاء معه من برد قارص، وأمطار غزيرة، وصقيع شديد، ورياح عاتية، وهم في مخيماتٍ ضعيفة بالية، لا تدفع عنهم برودة الشتاء ولا أمطاره الشديدة.

وراح شاعرنا العزب يرصد لنا أبعاد وملامح تلك التجربة الإنسانية القاسية بمخيلته الشعرية وإبداعه الفني الخلاّب، وذلك في عدة أفكار وصور جزئية دارت جميعها حول فكرة تصوير مأساة ذلك اللاجئ، واستهل العزب قصيدته بفكرة (مجئ الشتاء يهيج ذكريات اللاجئ) وفيها يقول: (١)

عاد الشتاء.. ولم أزل أغفو علي صدر الضياعْ

(١)الأعمال الكاملة ص ٦٧٧.

في خيمة غيمي ممزقة... تعيش بلا شعاعْ
الليلُ يخنقُ كل شمعاتي... ويحتضن الرِّباعْ
والريحُ تلهوخلف شطآني.. بأجنحة الشراعْ
والذكريات السود تزرع في دمي نار اللِّياعْ
وتعود بي للأمس.. حين شببتُ ملحمة الصراعْ
وتآمر المتآمرون عليّ.. من كل البقاعْ
فخرجت من بلدي بلا ذكري.. تضيء بلا وداعْ

في هذه الفقرة الاستفتاحية يبين الشاعر أنه مع عودة فصل الشتاء تعود الذكريات والمشاعر الأليمة البائسة، التي تراود نفس اللاجئ الشريد، وتعتصرقلبه الموجوع الجريح، حيث يقبعُ في خيمته البالية الممزقة، والريح العاتية والذكريات الأليمة تحيط به من كل مكان، في ليلٍ حالك شديد الأسي، حيث ذكريات الماضي الموحش الأليم الذي نسج خيوطه المعتدون والمتآمرون علي وطنه.

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلي فكرة أخري وهي الحديث عما تركه اللاجئ وخلّفه في وطنه من ذكريات وأخبار، وفيها يرسم بعبارات الأسي والألم صورة لماضيه السعيد في وطنه وما خلّفه فيه من ذكرياتٍ قبل العدوان عليه، حيث يقول العزب:

خلّفتُ حتي صورتي.. مشدوهةً عبر الإطارْ
حتىٰ أراجيح الصغار.. وساعةً فوق الجدارْ
ودمًي كأيامي.. وبضع رسائلٍ بيضٍ حرارْ

ومسارجًا للضوء.. كانت تحتمي خلف الستارْ

وملاعبًا كنا نعربدُ في مجاليها... صغارْ

وحدائقًا كانت تجود بكل ألوان الثمارْ

آلاف أشياء لنا.. خلَّفتها بيد الدمار

أتُري ذوت؟.. أم أنها تحيا علي أمل انتصار؟

❁❁❁❁❁

ثم يتوجه الشاعر بعد ذلك مخاطبًا قريته الحبيبة النائية عنه خطاب المتحرِّق شوقًا إليها، المكتوي بنار الهجر والبعاد عنها قائلًا:

يا قريتي يا قرية البسطاء.. يا مهد الغرام

أهدي إليك الشوق.. أهدي الحب أهدي الابتسام

أهديك معني لا أحسُّ به هنا.. معني السلامْ

يا قريتي.. أنا قد سئمت العيش في ليل الخيام

وسئمت آلاف الوعود.. سئمت فلسفة الكلام

وودت لو كانت لذاتي.. كل أجنحة الحمام

لأطير مشدودًا إليك.. بكل أشواقي الضخام

يا قريتي مدِّ إليّ يديك.. مزقني الظلام

إني لألمحُ عبر واديك الخصيب.. رُؤَي الظلام

وأراك من خلف الضباب.. أراك شاحبة الضفافْ

بيتي هناك يلوح مصلوبًا.. علي أيدي الشّعافْ

من كل نافذة تطلّ ضراعة.. يعلو هتاف

وعلي ستائره التريكة.. يرتمي ليل ارتجاف

ووراء شرفته تلوب مشاعل.. بيض لطافْ
ويضجُّ حتي مشجبي العريان.. من ثوب الزفافْ
حتي جدار البيت.. يسأل عن نهايات المطافْ

❁❁❁❁❁

في هذه الفقرة يكشفُ الشاعر عن مدي الشوق واللهفة التي تذوب بنفس اللاجئ وتضّطرم بقلبه تجاه قريته الصغيرة الحبيبة، ويكشف كذلك عن شدة الأسي وحالة الضيق والسأم التي يعانيها في غربته بعيدًا عن قريته ووطنه، التي لم تغب يومًا عن خاطره ولا عن قلبه، حيث يراها ماثلةً وحاضرةً أمام عينيه بكل ما فيها من آثار وديار، يسمع أنين وحنين كل ما فيها، ويسمع نداء ودعاء كل ما بها من بشر وحجر للخلاص من نير الظلم وبطش الاحتلال.

ثم يتطرق الشاعر بعد ذلك للحديث عن مشهد مأساويٍ أليم من مشاهد العيش في غربة الخيام القاسية وهو مشهد حديث الأب الموجوع مع طفله الصغير الذي أنسته وألهته حياة الخيام الواهية عن دياره وعن قريته، وعن حق العودة لوطنه قائلًا:

يا قريتي ما مرّ يومٌ.. دون ذكري أو أملْ
أنا كلّ يومٍ في الضحا.. أعدُو إلي هذا الجبل
أبكي وأغزل من خيوط الوهم فجرًا قد أفلْ
ويجئ طفلي راكض الخطوات.. مشدود المقلْ
ويلوذ بي ويقول: هل ما زلت ترنو للطلل؟
أبتاه: هيا.. للخيام.. لدارنا. قبل الطَّفَل

فأصيح لا يا بنيّ.. هناك داريَ لم تزل
أماّ هنا.. فالغربة السوداء تفتك بي.. أجلْ
وأجل.. أنا أحيا هنا.. في غربةٍ صمّاءٍ جهمهْ
الليل من حولي دجًى.. وعويل آهاتٍ وظلمهْ
وعيون قوم ينشدون علي سرير الأفق نجمهْ
وسعالُ مصدورين.. يفترشون أسمالًا ونقمهّ
وبكاء أطفال.. تضلّ أكفهم في الليل لقمهْ
وصلاة شيخ.. طاعن.. يسترفدُ الأقدار رحمهْ
ودموع أمطارٍ.. يرقرقها الدُجَي.. لمصير أمه
وخرافة كبري.. دعاها المجرمون هناك خيمه

❁❁❁❁❁

في هذه الفقرة البالغة التأثير والتحسُّر يرسم لنا الشاعر الموهوب لوحة فنية فائقة تظهر التواصل والحوار بين الأجيال البريئة المغتربة، حيث جيل الأب الذي يتشوَّق ويتحرّق إلي العودة لقريته التي لم تغب أبدًا عنه، ويناجيها ويبثها أشواقه وآلامه من فوق قمم الجبال والتلال، وجيل الإبن الصغير الذي أوشك أن يذوب في خيام الغربة وينسي قريته ووطنه، وفيها يحثُّ الأب طفله الصغير علي التمسك بوطنه، وبحق العودة إليه مهما اشتد الأمر وطال، ويخبره أنّ العيش والحياة في خيام الغربة هو الموت، وأنّ النضال والموت علي ثري الوطن هو عزُّ الحياة وشرف الممات.

ثم يختتم الشاعر قصيدته بصيحة الأمل وصرخة الرفض ومقاومة المحتل الغاصب بقوله:

يا قريتي لي فيك عمرٌ هارب.. عبر التلالْ
لي فيك طفلٌ.. كنته يومًا تلفّع بالظلالْ
ومشي علي أهرائك السوداء.. فاحتشدت غلال
حتي إذا جنّ المساء.. وأعولت ريح الشمال
ورأي فلول الشعب.. ترقد خلف أطلال الملال
نبش التراب.. وخطّ فوق جبينه.. قسمَ النضال
يا قريتي.. ما عاد طفل الأمس.. طفلًا للخيال
الثأر أنضجه.. فهبّ يدّكُ جدران المحالْ

يعلن الشاعر الثائر المتمرد في هذا المشهد الختامي رفضه التام للإستسلام أو الخنوع لحياة الذل والإغتراب في الخيام، وتمسكه وإيمانه بحق العودة إلي قريته ووطنه، بعد أن شبّ صغير الأمس وصار بطلًا، يطلب الثأر والعزّة لوطنه، والخلاص من ظلم وقهر الإحتلال.

والقصيدة كما تبدو لنا من أولها حتىٰ آخرها صرخة ألم وأمل لأحد اللاجئين المشرّدين عن ديارهم وأوطانهم، صاغها شاعرنا العزب في تجربة فنية مؤثرة وفريدة، رصد من خلالها ملامح وآثار تلك المأساة الإنسانية البالغة. والقصيدة وإن كانت ذات موضوع واحد وهو الحديث عن مأساة اللاجئ ووصف آلامه وأوجاعه النفسية المبرحة، غير أن شاعرنا العزب يؤلف بين صورها وأفكارها الجزئية والكلية التي جاءت في ترابطٍ منظّم، وتسلسلٍ محكم بديع، ما جعل القصيدة تحتفظ بوحدة الأثر العام لها.

والقصيدة بعد ذلك كتلة موضوعية واحدة، ينتظمها خيطٌ شعوري ونفسي واحد، وجاء تسلسل الأفكار فيها منطقيًا مترابطًا، يأخذ بعضها بعنق بعض دون قلقٍ أو تخلخلٍ أو اضطراب.

والقصيدة في أصل فكرتها صرخة بكائية حارة موجعة، أطلقها أحد اللاجئين من خلف قضبان وأسوار غربة الخيام المؤلمة القاسية. استطاع شاعرنا العزب بإحساسه المرهف أن يستحضر الأحاسيس والمشاعر الحبيسة الأليمة بنفس اللاجئ، واستطاع كذلك بعبقرية نادرة أن يندمج في كيان تلك الشخصية بمأساتها وجراحها اندماجًا وجدانيًا وشعوريًا وفنيًا كاملًا.

وقد مزج الشاعر في قصيدته بين أساليب الخبر والإنشاء، فنراه تارة يعمد إلي الإستعانة بالأساليب الخبرية المحملة بأعباءٍ وشحناتٍ كثيفةٍ من الهموم والمآسي التي يحياها اللاجئون في غربتهم. ما بين ذكريات الماضي والحنين إليه، وآلام الحاضر ومخاوف المستقبل المجهول، نلحظ ذلك في قول الشاعر:

ولم أزل أغفو علي صدر الضياعْ

ويأتي كذلك بالأسلوب الخبري الذي يسلم إلي النتائج علي نحو ما نجد في قوله:

وتآمر المتآمرون عليّ.. من كل البقاعْ

فخرجت من بلدي بلا ذكري.. تضيء بلا وداعْ

وتارة يأتي بالأسلوب الإنشائي كما في صورة النداء المتبوع بالأمر الطلبي في قوله:

يا قريتي.. مُدّي إليّ يداكِ... مزقني الظلام

والذي يؤكد علي مدي تمسك اللاجئ بقريته ودفاعه عنها، ورفضه لكل محاولات ومؤامرات المحتل البغيض لطمس الثوابت وتضييع الحقوق.

ويكثر الشاعر من تكرار أسلوب النداء الإنشائي بقوله (يا قريتي) وهو تعبير يوحي بشدة الشوق والحنين الذي يحمله اللاجئ لقريته ووطنه، ويوحي كذلك بقرب القرية إلي قلبه وتعلقه بها تعلقًا جعله دائم الذكر والفكر لها ليل نهار.

وتارة يجمع الشاعر بين الخبر والإنشاء ليفضيان معًا إلي التقرير وذلك في مثل قوله:

خلّفتُ حتي صورتي.. مشدوهةً عبر الإطارْ
حتىٰ أراجيح الصغار.. وساعة فوق الجدارْ
ودمًي كأيامي.. وبضع رسائلٍ بيضٍ حرارْ
ومسارجًا للضوء.. كانت تحتمي خلف الستارْ
وملاعبًا كنا نعربد في مجاليها... صغارْ
وحدائقًا كانت تجود بكل ألوان الثمارْ
آلاف أشياء لنا.. خلَّفتها بيد الدمار
أتُري ذوت؟.. أم أنها تحيا علي أمل انتصار؟

وكذلك أضفي شاعرنا العزب علي قصيدته من خياله ومشاعره ما جعلها تسبح في أجواءٍ من الخيال والصور الرائقة البديعة. ففي قوله:

عاد الشتاء.. ولم أزل أغفو علي صدر الضياعْ
في خيمة غيمي ممزقة... تعيش بلا شعاعْ

كناية عن شدة الأسي والمعاناة التي يقاسيها اللاجئ في خيمته المتهالكة التي تفتقد أبسط مقومات ووسائل الحياة الإنسانية. وفي قوله:

الليل يخنق كل شمعاتي... ويحتضن الرِّباعْ
والريح تلهوخلف شطآني.. بأجنحة الشراعْ

والذكريات السود تزرع في دمي نار اللّياعْ

نري جملة من الاستعارات المكنية البليغة التي استنطق من خلالها الشاعر عناصر الكون والطبيعة من حوله لتشارك اللاجئ مأساته وآلامه، والتي حملتها الأفعال المضارعة (يخنق، يحتضن، تلهو، تزرع) حيث صوّر الشاعر مأساة اللاجئ وجسّد صورها فجعل من الليل إنسانًا يخنق ويحتضن، وصوّر الريح بطفل يلهو ويمرح، وصوّر الذكريات بإنسان يزرع ويعود، وقد أوحت تلك الصور الاستعارية بمدي ما يعانيه اللاجئ في محنته وخيمته من أسي وحرمان.

ويكثّف الشاعر من حشد صور التشخيص والتجسيد في قصيدته وذلك رغبة منه في تفاعل وتشارك كل ما حول اللاجئ من مظاهر مادية جامدة إلي كائنٍ حيٍ يتفاعل ويتأثر بمن حوله، فنري في قول العزب:

يا قريتي مدِّ إليّ يديك.. مزقني الظلام
إني لألمحُ عبر واديك الخصيب.. رؤي الظلام
وأراك من خلف الضباب.. أراك شاحبة الضفافْ
بيتي هناك يلوح مصلوبًا.. علي أيدي الشّعافْ
من كل نافذة تطلّ ضراعة.. يعلو هتاف
وعلي ستائره التريكة.. يرتمي ليل ارتجاف
ووراء شرفته تلوب مشاعل.. بيض لطافْ
ويضجُّ حتي مشجبي العريان.. من ثوب الزفافْ
حتي جدار البيت.. يسأل عن نهايات المطافْ

جملة من صور التجسيد والتشخيص الفني أحالت العوالم المادية إلي كائناتٍ حية متفاعلة، حيث صوّر الشاعر القرية بإنسان له يد يمدُّها ويغيثُ بها، وصوّرها كذلك بفتاة شاحبة الوجه ذابلة البشرة، وصوّر بيته برجلٍ مصلوب مغلوب، واستنطق نوافذ البيت وجعلها تضرع وتهتف بالدعاء والصراخ، وصوّر الليل بإنسانٍ يرتمي علي الستائر، وصوّر حمالة الثياب

بإنسان يَضُجُّ ويصرخ، وصوّر كذلك جدار البيت بإنسان يشكو ويسأل عن الخلاص من نير الظلم وقهر الإحتلال. وهي صور وأساليب فنية بارعة أسهمت في التأكيد علي قوة تلك المعاني ووضوحها.

وغلب علي جو القصيدة سمة السرد والاستطراد في رسم الصور المختلفة كما في مشهد الحوار السابق الذي دار بين الأب وطفله، والذي أظهر عبقرية الشاعر الذي ربط من خلاله بين جيلين مختلفين: جيل الأب المستمسك بقريته وبحق العودة إليها، وجيل الإبن الصغير الذي كاد أن يفرّط في ثوابته ويتخلي عن وطنه وأصله، ويقنع بحياة الذل والهوان في الخيام.

وبدت عاطفة الشاعر في هذه القصيدة قوية وثائرة، وتأرجحت بين مشاعر الأسي والألم ومشاعر التمرد والثورة والرفض لهذا الواقع المرير الذي يحياه اللاجئ في غربته.

وبني شاعرنا العزب قصيدته هذه علي تفعيلة بحر الكامل المجزوء، وهو من أوسع وأكثر البحور العروضية دورانًا واستعمالا في الشعر العربي، ويتسم ذلك البحر بالتطويل والسعة، وقد أعطت تلك الخاصية مساحة واسعة للشاعر للسرد والبوح والتنفيس عن قدر كبير من تلك الأحاسيس والمشاعر النفسية الأليمة التي تموج وتضطرب بنفس اللاجئ الشريد.

واستخدم الدكتور العزب أكثر من قافية في تلك القصيدة، وجعل لكل فقرة من فقراتها المتعددة قافية خاصة تناسبها وتناسب ظروفها الفنية والنفسية.

التجربة الثانية للرجل (تجربة الجوع والحرمان).

رصد الدكتور محمد العزب بعدسته الفنية تجربة أخري تتعلق بالرجل أو بربِّ الأسرة عامة وهي تجربة الشعور بالعجز والحرمان، وهي تجربة مأساوية بالغة، لا تقل في أساها وشدتها عن التجربة السابقة، حيث يتعرّض من خلالها شاعرنا إلي تصوير جانب مأساوىٰ ربما يتعرض له كثير من الآباء في سبيل تحقيق وتحصيل ما يحتاجه أولادهم وأطفالهم من ضروريات وأساسيات الحياة من طعام أو شراب أو لباس أو ما شابه ذلك من أمور حياتيه.

وصوّر الدكتور العزب في تلك التجربة مأساة لأحد الصيادين قد خرج سعيًا في سبيل الله وضربًا في البحر بقاربه وشباكه طلبًا لشيءٍ يصطاده أويتحصل علي رزقٍ زهيدٍ يعود به إلي طفله الصغير الذي تركه في البيت يصارع الجوع والحرمان، ولا يملك في بيته ما يسُدُّ به رمقه أو يطفئ به لهيب جوعه. وهي قصيدة مأساوية أسماها العزب بـ (رحلة صياد) وفيها يقول: (١)

مثلما تندالحُ في الأفق.. علي الشطّ غمامهْ
مثلما تبحثُ عن أفراخها حمامهْ
مثلما ينسابُ في العيدِ يتيمٌ خلْفَ لعبهْ
مثلما يرتجُّ مبحوحًا إذا هزته رغبهْ
كان صيادٌ يجُوبُ الشاطئ المخنوق وحدهْ

(١)الأعمال الكاملة ص ٦٣١.

ويناجي في سكون الصمت واللاّشيء صيدَهْ
كان يمشي مثلما ينسلُّ في الليل نداءْ
مثلما تصفَّرُّ في القيثارةِ أصداء غناءْ
يتنزّي شوقُهُ المصفودُ طفلًا في يديهْ
ويسجّي كل ألوانِ المَدَىٰ في مُقلتيهْ
وخُطاهُ تصفعُ الشاطئ أعشابًا وصخرًا
والذي يحملُ فيه صيدَهُ مازالَ قفرًا
وتهاوي خلف ظلٍّ شاحبٍ تحت شُجيرهْ
تنحني تغسلُ كفيها بأمواجِ البحيرهْ
أطبقَ الجفنين في شبه ذهولٍ واستراحْ
وتمني أن يعيش العمرَ من غير جراحْ
كم تمنىٰ أن يعيش العمر في الظلِّ غريباَ
يرتدي سرواله شوكًا وإعصارًا رهيباَ
يأكلُ الخبزَ قديدًا يمضغُ الماء صديداَ
كم تمني أن يعيش العمر في الظلِّ وحيداَ
لا يري أطفاله في الكوخ يبكون جياعاَ
وينامون اضطجاعًا ويعيشون ضيَاعَا
لا يري أطفاله في الَسيلِ يَحيُون عَرَاياَ
يحصدون العمرَ وَهْمًا ويموتُون ضَحَايا
وتمطَّي ألفُ إعصارٍ بجنبَيهِ فقاماَ
يزرعُ الشاطئ والأغْوارَ بحثًا وهُيَامَاَ

كان يستَجْدِي جبال الموجِ شيئا أيُّ شيْ
ربَّما من أجل من مَاتَ مرارًا وهو حيْ
والشِّباكُ الرَثَّة العَميَاء لا تمسِكُ صَيداَ
وكأن البحر أمسَي نَاضِبَ الأعمَاقِ صلداَ
وتَمَطّي ألفُ إعصَارٍ بجَفنَيه فأطرَقْ
فرأي في صفحة النهر طيوفًا تترقرقْ
خَيَّل اليأسُ لعينيه مع الأَطيافِ صورهْ
لصغيرٍ يَذبَحُ الإعصارُ والجدبُ زهورَهْ
لصغيرٍ يغزل الليل بكاءً ورجاءَ
وحَنِينًا ينشدُ الصَيدَ مع الصبح غذاءَ
طِفلُهُ الساهدُ خلفَ الكُوخِ عُريَان المساءْ
ظَامِئَ الأكوابِ مَصْلُوبًا علي أرض الشقاءْ
أتري يرجع بعد الجهد لا يحملُ شيئاَ
غير أن يحمل وهمًا وأعاصيرَ ونوْءاَ؟
ربما الطفلُ يظنُّ الجوعَ بُخلا من أبيهْ
ربما يهربُ من قُبلاتهِ أو يزدريهْ
ربما إن عاد لا يحمل صيداَ أن يراهْ
ثم يرتدُّ وقد غامت دموعًا مقلتاهْ
كانت الشمس وراء الأفق تصفرُّ وئيداَ
وهو ما زال علي الشاطئ ينساب وحيداَ
والذي يحمل فيه صيدَه مَا زَالَ قفراَ

ورؤىٰ طفلٍ صغيرٍ جائعٍ تُصْلِيه جَمْرَاَ
غير أن الليل أَرْخَي من حواليه سدولهْ
وكأنّ الظلمة العمياء لم تبصر ذبولهْ
عادَ للكُوخِ فألقي طفلَه الشَاحِب نَامْ
وارتمت في ثغرِه المهزوم أطياف طعامْ
فانحني في لهفة ظمأىٰ عليه قبّلهْ
ليت قُبلاتك عيشٌ يابسٌ تهديه لهْ

عرض لنا شاعرنا محمد العزب صور وأبعاد هذه التجربة الإنسانية المأساوية البالغة في صورة شعرية أقرب إلي السرد والحكي القصصي، بل قل إن شئت في قالب قصةٍ شعرية قصيرة، عالج من خلالها هذا المشهد الإنساني المأساوي القصير الذي عاشه ذلك الصياد البائس الذي خرج يصارع الحياة، ويقتحم المخاطر والأهوال من أجل الحصول علي شيءٍ يصطاده لكي يسُدّ به جُوعَ طفله الذي أضناه وآذاه الجوع والحرمان، وبدا عليه الذُبول والشحوب، حتىٰ أسلمه الإرهاق والتعبُ إلي ظلِّ شجرةٍ علي شاطئ البحر لكي يستريح من العناء والشقاء، هاربًا من واقعه المأساوي المرير إلي عالمٍ من الأحلام والأوهام ينسجُ منه خيوطًا من الآمال والأمنيات العريضة التي يأملها ويتمناها، حيث يبغي حياةً هانئةً سعيدةً، لا تكدرها الهموم ولا الأحزان، وإن كان قوامها الكفاف والزهد، ذلك لأنه يتحملها ويصبر عليها، في حين لا يصبر أو يتحمل رؤية شبح الجوع والحرمان البغيض يخيّم علي نفوس أطفاله الصغار، يقُضُّ مضاجعهم، ويذهبُ بنضارة وزهرات حياتهم وطفولتهم الغَضَّة الطرية.

لكن لم تدُم له نشوة الأمنيات والأحلام، بعد أن أيقظه همُّ القلق والخوف علي الصغار، فقام يواصل رحلته البائسة بحثًا عن شيءٍ يصطاده، لكي يعود به لطفله المكتوي بنار الجوع والحرمان، مستجديًا ومستعطفًا كل مظاهر الطبيعة والكون من حوله لكي تشاركه وتتعاطف مع في مأساته وحرمانه، لكنه بعد كل محاولة يعود منكسرًا خالي الوفاض، حيث لا صيدٌ ولا غذاء.

وهو في معترك تلك الرحلة القاسية البائسة تطارده الأوهام والأطياف العابرة إليه من كل مكان، حيث يري طيف صغيره الجائع الهذيل وقد أجهده وأشحبه الجوع والهذال، ونظرات العتاب والشكوىٰ القاسية من طفله تطارده وتصليه، وكأنه هو من تسبب ببخله في جوعه وحرمانه. وقد أوشك يوم الصياد علي الانتهاء والرحيل، دون أملٍ في اقتناء صيدٍ أو طعام، وقد نشب الجوع أظفاره في جسد الطفل الصغير، فأسلمه إلي عالم النوم هاربًا من واقعه المرير، ولم يملك الأب الحزين حيلة سوىٰ أن يقبّل جبين طفله المحروم بحسرة قاتلة وبؤسٍ شديد.

فكما نري أنّ فكرة هذا القصيدة تدور حول وصف مأساة الأب وعجزه عن إطعام طفله الصغير.

وبدت القصيدة بهذه الفكرة العامة مشتملة علي عدة صور جزئية مرتبة ومتسلسلة، جاءت من خلال عرضٍ منطقي متآلف، ذي جوٍ نفسي مأساوي مرير، ووحدة فنية تعبر عن رؤية شفيفة حول تلك التجربة الإنسانية المأساوية البالغة، وذلك في أسلوب رائقٍ بديع، وأداءٍ مؤثرٍ ومثير.

وقد خلت القصيدة تقريبًا من الأساليب الإنشائية التي لم تتوافق مع حركة الصياد المضطربة وبحثه الحثيث عن طعام لطفله الصغير، من أجل

ذلك عمد الشاعر إلي الاستعانة بالأساليب الخبرية التقريرية التي تناسب حجم الهموم والآلام التي يقاسيها ذلك الصياد في رحلته البائسة.

فنراه يعمد إلي تكرار الخبر في قوله: (والذي يحمل فيه صيده ما زال قفرًا..)

وهو بلا شكٍ تعبير خبري يفيد دوام واستمرار حالة الحرمان والتحسر وخيبة الأمل التي عاشها الصياد في رحلته من أولها حتىٰ آخرها.

وقريب منه كذلك التعبير بالأسلوب الخبري الذي حمله التشخيص الفني في قوله:

والشباكُ الرثّة العمياء لا تمسك صيداَ..

والذي يفيد كذلك دوام حالة اليأس والإحباط التي خيمت علي الصياد في رحلته.

أما بالنسبة للصور الخيالية والفنية التي تكاثرت وتزاحمت بها القصيدة من مبتدئها حتىٰ منتهاها.

فنري استهلال القصيدة بصورة من التشبيه التمثيلي البليغ متعدد صور المشبه به، والذي صوّر به الشاعر حالة ولهفة خروج الصيّاد وسعيه الدؤوب الحثيث وراء شيئ يصطاده، وذلك بذكر أربع حالات وصور للمشبه به وهي: سير السحابة المحملة بالمطر فوق الشاطئ تبحث عن مرفءٍ لها، وبلهفة الحمامة المفجوعة في صغارها تبحث عنهم، وباشتياق ولهفة الطفل اليتيم وراء لعبت التي يهواها ويتعلق بها، وبالإنسان المبحوح الذي لا يستطيع الكلام وتتزاحم الرغبات والطلبات في نفسه ويعجز عن البوح بها. وهي صور فنية كما نري من التفصيل والتركيب تنشد الكمال والجمال في نقل الصورة واضحة ومؤثرة.

وفي هذا التعدد في جانب المشبه به من الشاعر دلالة علي مدي الحيرة والخوف والقلق الذي ينتاب ذلك الصياد واللهفة علي الحصول علي شئ يعود به لطفله الجائع.

ثم نراه يتبع تلك الصورة التشبهيهية بصورة تمثيلية أخري في قوله:

كان يمشي مثلما ينسلُّ في الليل نداءْ

مثلما تصفَّرُّ في القيثارةِ أصداء غناءْ

حيث شبّه مشىٰ الصياد وتعقبه لصيده في ترقبٍ وحذرٍ بانسلال النداء في الليل، وبخروج الصوت من آلة الغناء، وفي ذلك دلالة علي شدة الحذر والترقب والخفاء الذي يتعامل به الصياد مع فريسته لكي يتمكن من الظفر بها والاستيلاء عليها قبل فرارها.

ويقدم الشاعر في هذه التجربة ألوانًا من الاستعارات التي تجسّد لنا مدي ما به الصيّاد من بؤسٍ وحرمان، كما في قوله: (وخُطاهُ تصفعُ الشاطئ أعشابًا وصخرًا..)

وهي استعارة مكنية، حيث شبه الشاعرُ خطي الصيّاد باليد التي تصفع وتضرب، وقد أظهرت تلك الاستعارة مدي حرص الصيّاد وسعيه الدوؤب وراء صيده الذي يحرص عليه ويترقبه.

ومن الاستعارات المكنية كذلك في القصيدة قول الشاعر:

وتمطَّي ألفُ إعصارٍ بجنبَيهِ فقاماَ

يزرعُ الشاطئ والأغْوارَ بحثًا وهُيَامَاَ

وتَمَطّي ألفُ إعصَارٍ بجَفنَيه فأطرَقْ

فرأي في صفحة النهر طيوفًا تترقرقْ

حيث صوّر الشاعر الإعصار في هذين الموضعين بإنسان يتمطي في مشيته أمام الصيّاد فأيقظه من نومه وأفاقه من غفلته فقام وانتبه، وواصل رحلته بحثًا عن صيده.

وقد أفادت الاستعارة في هذين الموضعين شدة ما يقاسيه الصيّاد في رحلته من عناءٍ ويأس وألم، جعله لا ينعم بوقتٍ للراحة والسكون في تلك الرحلة القاسية البائسة.

وبجانب التصوير الاستعاري نجد بعض الصور الكنائية التي تدلُّ علي تملّك الهم والأسي الصيّاد البائس وقلقه الدائم علي أطفاله الصغار وذلك في قوله:

لا يري أطفاله في الكوخ يبكون جياعا
وينامون اضطجاعا ويبكون ضياعَا
لا يري أطفاله في السيل يحيون عرايا
يحصدون العمر وهمًا ويموتون ضحايا

وهذه الفقرة كناية عن تحسُّر الصياد الأب وأساه الشديد علي أطفاله الصغار الذين كان يأمل لهم حياة كريمة هانئة، لا يتجرعون فيها مرارة الأسي وقسوة الحرمان.

ونري في قوله كذلك: (ربَّما من أجل من مَاتَ مرارًا وهو حيْ)

كناية معبرة وبليغة عن شدة ما قد أصاب أطفال الصياد من بؤسٍ وجوعٍ وهذال.

ولم يغفل شاعرنا محمد العزب عن إلباس بعض المعاني ثوب التشخيص الفني الذي يزيد المعني قوة ووضوحا وجمالًا، نري ذلك في قول العزب:

كان يستَجْدِي جبال الموجِ شيئا أيُّ شيْ

ففيه صوّر الشاعر الموج بإنسان يستجديه الصيّادُ ويستعطفه من أجل أن يجود عليه بالصيد والعطاء لطفله الصغير، وفي تعبيره بـ (جبال الموج) إيحاءٌ بمدي شدة وصلابة وقساوة تلك الأمواج التي ضنّت بما فيها من خيرات، ولم ترّق لحال ذلك الصّياد ولم تجد له بشيءٍ.

وظهر كذلك التجسيد في قوله:

وتهاوي خلف ظلٍّ شاحبٍ تحت شُجيرهْ

تنحني تغسلُ كفيها بأمواجِ البحيرهْ

حيث صوّر الشجيرة التي جلس الصياد تحت ظلها بإنسان له أكف يغسلها، وقد أشار بهذا التجسيد الفني إلي تعاطف الطبيعة مع ذلك الصيّاد البائس، وكأنّ تلك الشجيرة تستجدي وتستعطف أمواج البحر حتىٰ يجود بما فيه من خيرات علي ذلك الصياد.

ونري كذلك الاستعارة والتشبيه في قوله:

والشِّباكُ الرَثَّة العَميَاء لا تمسِكُ صَيداَ

وكأن البحر أمسَي نَاضِبَ الأعمَاقِ صلداَ

حيث صوّر في البيت الأول شبَاك الصيّاد بإنسان له أعين يري ويبصر بها، ثم انتقل في البيت الثاني إلي تشبيه البحر في نضوبه وخلوه من أي شيئ يصطاده بالأرض اليابسة التي ليس بها زرعٌ أو نبات، أو بالجبل الأملس

الشديد الذي لا يمسك علي متنه شيئًا. وفي كلٍ دلالة علي خيبة الأمل واليأس الشديد من اصطياد شيءٍ يعود به لطفله الجائع الهزيل.

ثم يختتم الشاعر قصيدته بلوحة استعارية مستمدة من تراثنا الأصيل والتي نلحظها في قوله:

غير أن الليل أَرْخَي من حواليه سدولهْ

وكأنّ الظلمة العمياء لم تبصر ذبولهْ

وتلك استعارة مكنية بليغة، تذكرنا بليل امرئ القيس الطويل المحمِّل بالهموم والأحزان، حيث صوّر الشاعر الليل الموحش المظلم بإنسان يرسل الستور علي ذلك الصيّاد البائس، وصوّر ظلامه الموحش بإنسان له أعين أصابها العمي فهي لا تري ما حلّ به من أسي وبؤس وألم.

وقد جاءت هذه التجربة الإنسانية الفريدة في غاية التأثير والإمتاع، عالج من خلالها شاعرنا العزب تلك المأساة الأبوية البالغة، وبدت من خلالها عاطفة الشاعر في أسمي درجات الصدق الوجداني والفني، محملةً بشحناتٍ من الأسي النبيل، والشعور الإنساني العميق، الذي يحمل القارئ لها علي البكاء والتأثر البالغ بما فيها من مشاعر وأحاسيس إنسانية صادقة ومؤثرة.

ونظم شاعرنا قصيدته من بحر الرمل المجزوء، بقافية متعددة ومتنوعة، وبحر الرمل بتكوينه العروضي المتألف من سببين خفيفين بينهما وتد مجموع مكّن الشاعر من أن يسكب مشاعر الأب العاجز المحروم في صورة متوائمة مؤثرة. علي أن بالقصيدة نوعًا آخر من الموسيقي الداخلية، وهي تلك الموسيقي الناشئة من اختيار الشاعر ألفاظا معينة وتأليفه بينها تأليفًا حسنًا، مثل (تنداح، ينساب، يجوب، ينسلُّ، يتنزّي، يسجّي...).

وعاون علي ذلك ما نجده في القصيدة من ألوان من البديع عفوية، واهتمام بالتقفية الداخلية مثل حسن التقسيم في قوله:

لا يري أطفاله في الكوخ يبكون جياعا

وينامون اضطجاعا ويبكون ضياعَا

وهكذا استطاع شاعرنا محمد العزب بمهارته الفنية العالية، وإنسانيته الراقية أن ينقل إلينا ملامح وأبعاد تلك التجربة الإنسانية الشفيفة بصورة واضحة وقريبة، واستطاع أن يضفي عليها من روحه وعاطفته ما جعلها ذات تأثير كبير في التفاعل والتعاطف معها تفاعلًا وتعاطفًا جدانيًا وإنسانيًا كبيرا.

الصورة الثالثة: التجارب الإنسانية الخاصة بالطفل.

إنّ شاعرنا الدكتور محمد العزب الذي تغنّي بقيثارته الشعرية وعزف بها أبلغ وأمتع القصائد الإنسانية معالجًا بها بعض التجارب المأساوية التي تجرّع غصّتها ومرارتها الإنسان بنوعيه الذكر والأنثي، لم يغفل عن الأطفال الصغار، وهم نصف الحاضر وكلّ المستقبل، فتعرّض لما خطَر له من مآسٍ وأوجاع تمرّ بها فئة معينة من الأطفال الصغار، وهي تلك الفئة الضائعة المشرّدة، التي ليس لها مأوي ولا عائل في الحياة، تفترشُ أبدانهم الشوارع والطرقات وأبواب المساجد، وتلتحف وتسظّلُّ بالسماء دون مأوي أو سكن.

هؤلاء البؤساء الفقراء الذين يرضُون ويقنعون بالفتات القليل من حطام الدنيا ومتاع الحياة، هم الذين أوصي بهم المولي -عزوجل- في كتابه العزيز في قوله تعالي: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾(١).

رصد شاعرنا محمد العزب بعدسته الفنية تجربة إنسانية مأساوية موجعة عالج من خلالها بعض الآلام والمآسي التي يشعر بها ويعيشها أصحاب تلك الفئة في الحياة، وعنون لها بـ (مشردون) وأهداها إلي الصغار الذين ينتحب المنديل المستجدي علي أكفهم وجه النهار، حتىٰ إذا جنّهم الليل، ناموا علي صدر الرصيف، وفيها يقول العزب: (٢)

(١)الآيتان ٩/ ١٠ سورة الضحي.

(٢)الأعمال الكاملة ص ٦٥٩.

.. وبين ملاحن الإعصار.. والأنواء.. والمطرِ
تلعثم في دروب التيه.. طفلٌ نائح الوترِ
يغني للدُجي. للصمت.. للأطلالِ.. للشجرِ
لكل الكائنات.. لقلبها المجبول من حجرِ
وفي كفَّيه منديلٌ.. حزينٌ.. دامع القدرِ
كم استجدي به. ومشي جريحًا مطرق الخفرِ
وخلْفَ الطفل.. كانت طفلة تحبُو.. وتنهزمُ
شقيقتهُ؟ أظنُّ.. ففي ملامحها رؤًي ودمُ
وأطيافُ ابتساماتٍ يلفُّ شبابها العدمُ
وعبر جفونها السمراء.. يصحو السهد والألم
وترتُّج الدموع علي محاجرها.. وترتطمُ
وفوق ذراعها خرقٌ ممزقة بها لُقَمُ
وتحت شعاع نافذة هناك.. رقيقة الهمسِ
ينام علي سواعدها ستار مترفُ اللمسِ
ويرقُدُ فوق أذرعها أصيصٌ حالم الغرسِ
جثا. وجثت. شريدان. بلا يوم. ولا أمسِ
يُنقّر في تراب الأرض.. وهي شليلة الحسّ
وحين تعربد الظلمات.. يرتميان في يأسِ
ووَلْوَلَ في دمِ الطفلين.. إعصارٌ من الحيرهْ
فقاما يبكيان علي ربابٍ دامعِ النبرهْ
يقول الطفلُ: يا ليلُ. وتهتف أخته: كِسرهْ

ويرتدُّ الصدي. غَيمان. لا زادٌ. ولا قطرهْ

فقد نام الجميع. سوي خفيرٌ. ساهر النظرهْ

مشي بهما. وخلف السجن. قيل: تسوَّلا مرّهْ!!

عالج شاعرنا محمد العزب في هذه القصيدة مأساة أحد هؤلاء البؤساء من الصغار المشردين قد أضناه الأسي والحرمان، وعضّه الفقر والجوع، فراح الطفل ومعه شقيقته الصغري التي يبدو عليها آثار الشقاء والحرمان مرتسمة علي وجهها الشاحب المذبول يجوبان دروب الحياة والأيام، يستعطفان قلوب الناس، ويستدران شفقتهما وحنانهما، من أجل الحصول علي ما يسُدّا به جوعهما، ويروي غلّة ظمأهما.

وبعد أن أجهدهما السير والبحث عن زادٍ جلسا الصغيران البائسان يستريحان تحت نافذة بيتٍ تسلّل منها ضوءٌ خافت رقيق، ويبحثُ الصغير في التراب من حوله عن شئ له ولأخته الصغيرة التي لا تقدر علي فعل شي، حتّىٰ إذا جنّ عليهما ظلام الليل ووحشته غلبهما النوم فناما في بؤسٍ ويأسٍ شديد.

غير أنّ منغصةُ الجوع وبؤس الحياة حالت دون أن ينعما بنوم هادئٍ مريح، فقاما الصغيران في فزعٍ وبكاءٍ ينشدان حاجتهما وطعامهما في وحشة الليل وسكونه، ولكن دون جدوي أو أدني أمل في الحصول علي شئ، وقد نام الجميع دون أن يشعر بهما أو ببؤسهما أحدٌ من الناس، ما عدا رجل الأمن الذي أمسك بهما، وزجّ بهما في غياهب السجن بتهمة التسول والتشرد.

فكما نري في هذه التجربة الإنسانية الفريدة معالجة صادقة ومؤثرة لظاهرة التسوّل والتشرد التي يقع في براثنها ويتلظّي بنارها الأطفال الصغار، دون ذنب أو جريرة لهم، سوىٰ أنهم يعيشون بدون مأوي لهم أو عائل يقوم علي شئونهم.

وفي هذه التجربة المأساوية ظهرت مقدرة الشاعر الدكتور العزب في رسم مجموعة من الصور الجزئية التي تضافرت وتكاملت حتىٰ كوّنت لنا تلك الصورة الكلية التي قامت عليها تلك التجربة الإنسانية الفريدة.

واستهل شاعرنا العزب قصيدته بلوحة فنية بارعة كشفت عن ملامح ذلك الطفل الصغير المُشرّد، فهو طفلٌ تائهٌ مشرّد، تتقاذفه أمواج الإعصار والأنواء والمطر، يستجدي ويستعطف مظاهر الطبيعة والكائنات من حوله، والتي صارت أقسي عليه من الحجر، وهو لا يملك من الدنيا سوىٰ منديلًا يُضمّدُ به جراحه، ويُجفّفُ به دموع عينيه، ويستجدي به قلوب البشر في ذلٍ وانكسارٍ دائمٍ لا ينقطع. واعتمد الشاعر في رسم ملامح تلك اللوحة علي فن التجسيد والتشخيص الفني، حيث جسّد عناصر الطبيعة من حوله من ظلامٍ وأطلالٍ وشجرٍ، وجعلها تسمع غناء الطفل الصغير وتتأثر به، وصوّر المنديل الذي بيديه بإنسانٍ يحزن ويبكي، ويدمع علي حال صاحبه، وأكّد علي ملازمة ذلك المنديل للطفل بكم الخبرية في قوله: " كم استجدي به " والتي أفادت كثرة استعماله لذلك المنديل وملازمته له في وقت.

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلي تصوير لوحة فنية أخري وهي وصف شقيقة ذلك الطفل الصغير التي تسير خلفه، فهي طفلة صغيرة في مهدها، قد استقبلت هذا القدر الشديد وهي في مستهل حياتها، لا تزال تحبو وتزحف

علي يديها، وترتسم علي ملامحها البريئة ابتساماتٍ يائسة، أحالها الفقر والعدم إلي كآبة وحزن، وتحت جفون عينيها يسكن الأسي والألم، حيث لم تنعم مثل باقي الصغار براحة أو نومٍ أو شبع، وتغطي دموعها البائسة عينيها، وتحمل علي ذراعيها خرقًا بالية ممزقة، تجمع فيها ما تتحصل عليه من فتاتٍ وطعام.

واتكأ الشاعر في تصوير تلك اللوحة علي أسلوب الاستعارة المكنية في قوله: "

وأطيافُ ابتساماتٍ يلفُّ شبابها العدمُ
وعبر جفونها السمراء.. يصحو السهد والألم
وترتُّج الدموع علي محاجرها.. وترتطمُ

حيث صوّر الابتسامة بإنسان له شبابٌ يذبلُ وينزوي، وصوّر السهد والألم بإنسان ينام ويصحو، وصوّر الدموع بصخرة ترتجُ وتسقط علي وجهها. وقد أفاد هذا التصوير الاستعاري البليغ شدة ما تعانيه تلك الطفلة البائسة من أسي وجوعٍ وحرمان.

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلي تصوير لوحة فنية ثالثة وهي صورة الشرفة أو النافذة التي جلس الصغيران تحت شعاع ضوئها، يستريحان من العناء والتعب، فهي نافذةٌ منيرةٌ هادئة، يكسوها ستارٌ ناعم الملمس رقيق، بها إناءٌ فيه زرعٌ وأزهار.

ولعل في اختيار الشاعر لأوصاف تلك النافذة ذات المظاهر المبهجة إشارة إلي ما يحلمُ به الصغيران البائسان من سكنٍ هادئٍ مريح، وحجرة نظيفة مرتبة، تناسب طفولتهما البريئة التي ضاعت بين ضجيج الشوارع

ومصاعب الحياة. وفي تلك الصورة كذلك مفارقة معنوية بين حالة البؤس والشقاء التي عليها الصغيران، وبين حالة الهدوء والترف والنعيم التي بداخل ذلك المسكن الناعم ومن فيه. واعتمد الشاعر علي تأكيد ذلك المعني وتوضيحه بالاستعارة المكنية، حيث صوّر الستار والأصيص في النافذة بإنسان ينام ويرقد، وبأسلوب التجسيد والتشخيص الفني الذي جعل النافذة إنسانًا له سواعد وأذرع يحركها ويتفاعل بها.

وأتي بالاستعارة المكنية مرة أخري في قوله: يُنقّر في تراب الأرض.. وهي شليلة الحسّ

حيث صوّر الطفل الصغير بطائرٍ يبحث في الأرض عن شيءٍ يقتاته ويأكله.

وبني شاعرنا قصيدته علي مجزوء بحر الوافر، والذي يتميز بمساحة واسعة تناسب حالة البوح والإفضاء والشكاية التي بدا عليها حال الطفلين البائسين.

وبهذا العرض السريع يتبين لنا مدي إنسانية وفنية الدكتور محمد العزب العالية في معالجته لتلك التجارب المأساوية في شعره، ومدي غزارة وكثافة نتاجه الشعري في ذلك الجانب الفني، ونظرته الوجدانية العميقة لتلك المآس والآلام التي تعتصر قلوب البعض من البشر، مؤكدًا بذلك علي قيمة الشعر ودوره الهادف في التفاعل مع قضايا الإنسان والمجتمع.

المبحث الثالث

السمات والخصائص الفنية في الشعر الإنساني المأساوي عند الدكتور العزب

إن الحديث عن الخصائص والسمات الفنية والأسلوبية في شعر الدكتور محمد العزب الإنساني حديث عذب رائق بديع، حافلٌ بالمعطيات والإيجابيات المتعددة، ذلك لأن الدكتور العزب أحد أعلام اللغة والأدب في مصر والعالم العربي، وقد أكسبه حفظه المبكر للقرآن الكريم وتعليمه الأزهري الأصيل مهارة ومقدرة بيانية وفنية عالية. حيث كان يجري الشعر علي لسانه سلسًا طيّعًا، دونما أدني تكلفٍ أو إرهاق أو عناء.

وجاء حديث الدكتور العزب الشعري عن التجارب الإنسانية حديثًا مكتمل الجوانب والخصائص الفنية، وذلك من حيث اللغة والأسلوب، والأفكار والمعاني، والخيال، والعاطفة، والوزن والموسيقي.

أولًا: اللغة والأسلوب:

تميز المعجم اللغوي عند الدكتور العزب بالأصالة والثراء، حيث كانت لنشأته الأولي في رحاب الأزهر المعمور أثرها في صقل موهبته، وثراء لغته، وسلامة وصحة تراكيبه.

فجاءت لغته في ديوانه الشعري بصفة عامة طيعة سلسة، لا تميل إلي خشونة أو غرابة، وكانت لثقافته العربية الأصيلة أثرا بالغا في طريقة صياغته اللغوية، واختياره لمفرداته وتعبيراته التي يؤلّف منها أساس تجاربه الإنسانية محل الدراسة والبحث.

وتراوحت لغته وتراكيبه اللغوية ما بين المفردات والتراكيب اللغوية المتأثرة بثقافته وتراثه الأصيل، وبين ابتكاره لصور وتراكيب لغوية جديدة. فمن صور وشواهد تأثره اللغوي بثقافته الأصيلة تعبيراته في قصيدته خواطر عانس (جنّ المساء، مختنق اللهاة)، وتعبيراته في قصيدة رحلة صيّاد (غير أن الليل أرخي من حواليه سدوله).

ومن الصور والتراكيب اللغوية التي ابتكرها العزب تعبيراته في خواطر عاقر (أفق منمنم، أرهف الحرمان حبي، خريف أحضاني، تنساب أسرار العصور، يعوي الفراغ)، وتعبيراته في قصيدة خواطر عانس (مخدعي الباكي، أحضُن اللاشئ، أمتص عذاباتي، أمضغ الآهات، يخنق الوهم صداها)، وتعبيراته في الخادمة وفستانها الجديد (فتهدم قلبي، وارتعشت أبعاد مكاني)، وتعبيراته في رحلة صيّاد (وخطاه تصفع الشاطئ، وتمطّي ألف إعصار، والشاطئ المخنوق).

وجاءت لغة العزب أثناء معالجته لتلك التجارب الإنسانية المأساوية نابعة من توجهٍ واعٍ يتعمق الواقع، ويتحسسُ آلام الإنسان وآماله وتطلعاته في وجوه تنطوي علي ألوانٍ من صراعه مع الحياة، تباينت فيه طرق وأساليب التعبير عنه.

ويكثِّف العزب في معالجته لتلك التجارب من الاستعانة بمفردات الطبيعة بنوعيها (الصامتة والصائتة) وذلك رغبة وحرصًا منه علي مناجاتها وبثِّها آلامه وأوجاعه النفسية الحبيسة، التي قد لا يستطيع البوح والتصريح بها أمام بني جنسه من البشر.

فنري جملة من مظاهر ومكونات الطبيعة منها مفردات (سوسنة، الليل، النهار، الندي، العشب، الحقول، الأفق، غدير فوق شطيه، الصبح، الشباك، البيت، الشتاء، الملاعب، الحدائق، الريح، القرية، الوادي الخصيب، الربيع، الطير، الفراش، خصل الجريد،.....).

أما من ناحية الأسلوب فقد تميز أسلوب الدكتور العزب في شعره عامة وفي الجانب الإنساني منه خاصة بالقوة والقرب والوضوح والشفافية. وتراوحت أساليبه الشعرية هنا ما بين الاستعانة بالأسلوب الخبري تارة، وبالأسلوب الإنشائي تارة أخري، وذلك حسب كل حالة وتجربة يشعر بها. فحينما تكون التجربة التي يعالجها تجربة إنسانية ذات أبعادٍ وزوايا خارجية فإن ذلك الأمر يحتاج إلي مساحة من البوح والاستطراد والسرد، فيلجأ الشاعر إلي الأسوب الخبري التقريري الذي يتناسب وتلك الحالة التي تتطلب التقرير والتوضيح.

وحينما تكون القضية أو التجربة المتناولة ذات أبعادٍ نفسية دخيلة تكون الحاجة أولي إلي الاستعانة بالأسلوب الإنشائي الذي يعطي مساحة للتساؤل والنداء والاستفهام الذي يتناسب وحالة التحسر والألم والحرمان الداخلي. كما نري في قول العزب في خواطر عاقر:

لِمَ لَمْ أكن خصيـــ.... بًا أو حياة باقية؟
لم لمْ أكن أمّا أرقـــ... قص مهد طفلي في مراح؟
وأهزُّه حتي ينـــــا..... م معطرًا برؤي الصباح؟
وأهيم في حلم شفيـــ.... ف الومض رفاف الصداح؟
جذلانة الآفاق تعـــــ.... زفُ لحن أفراحي الرياح؟

وبرع الدكتور العزب في حسن اختياره عناوين دواوينه وقصائده الشعرية، وهو ما يعرف (بسيمياء العنوان) وهو أول ما يقرع أذن السامع والمتلقي، حيث كان لكل عنوانٍ عنون به دواوينه أو قصائده عمقه ودلالته ودوره في تأويل النص الشعري والوقوف علي ما به من معانٍ وأسرار. فتارة كان يأتي للقصيدة بعنوان واحد كما نري في قصائده (خواطر عانس، وأم وشهيد، وذكريات لاجئ، ومشردون، ورحلة صياد....). وتارة أخري يأتي للقصيدة الواحدة بأكثر من عنوان ويترك للقارئ حرية الاختيار والتسمية، كما نري في قصيدته (بلا صدي) التي صدّرها بقوله: " سمّها إن شئت بلا صدي.. أو إن شئت فسمّها خواطر عاقر...

وفي ذلك إيحاءٌ بأن للنص أو القصيدة الواحدة دلالات ومعان متعددة، تحتمل أكثر من عنوان وتسمية لها، وللقارئ أن يحدد تلك التسمية أو العنوان حسب ما وصل إليه من إحساسٍ وشعور.

ثانيًا: (العاطفة)

العاطفة ناحية من نواحي الوجدان، ولون من ألوانه، والوجدان هو الناحية الحساسة في النفس، وهو موطن السرور والألم، وهي لُبّ الفنون وعمادها، وهي المعزف الذي به أوتار الأدب، وعليه يعزف الأديب، وهي الشرفة التي يطلُّ منها علي ما تنطوي عليه النفوس من ألم وأمل، والمنفذ الذي يصل منه إلي القلوب ". (١)

والدكتور محمد العزب شاعر أزهري أصيل، تعلم في الأزهر الشريف، وحفظ القرآن الكريم، وتوثقت صلته بعالمه الخارجي وما يعُجُّ به من أحداث ومتغيرات، وكان إنسانًا مرهف الحسّ، نبيل الشعور والوجدان، إجتماعيًا بطبعه، كثير الاختلاط بالناس والتعرف علي مشاكلهم وأحوالهم، غير منعزلٍ ولا منطوٍ علي نفسه، وإنما عاش في صميم الأحداث وفي قلب المجتمع، قريب من أحلام الناس وآلامهم وآمالهم، فلا غرو بعد ذلك أن تفيض عاطفته رقةً وحنانًا وأسيً علي من حوله من البؤساء والمنكسرين والمحرومين، وقد بدت عاطفته جياشة صادقة فيما عالج من تجارب وقضايا إنسانية، وإذا كان للشعور مظاهر ثلاثة: الفكر والوجدان والإرادة فقد تمتع شاعرنا العزب بذلك كله دون افتعال، كما أن التجارب الإنسانية التي عالجها بشعره قد بدت نابضة واضحة قد أحاط بأبعادها، واكتملت لديه عناصرها، حيث تعانق فيها الفكر والوجدان والخيال، كما تتلاحم

(١)الأصول الفنية للأدب د عبد الحميد حسن ص ٦٤.

الأفكار والمعاني في تعبير أمين وأسلوب مناسب، وتصوير صادق ينأي عن التكلف، ويصدر عن طبعٍ سليم وعفوية آسرة مؤثرة.

وقد بدت عاطفة الدكتور العزب في كل قصائده الإنسانية التي عالج من خلالها تلك التجارب المدروسة عاطفة صادقة وقوية وثائرة، ذات أسىً نبيل، وشعور عميق جليل، لا نكاد نعرف شاعرًا مثله عالج مثل تلك التجارب الإنسانية بهذا العمق والصدق الذي لم نر فيه تملّقا أو اصطناعا أو تكلّفًا.

وقد استطاع العزب بمشاعره الإنسانية الصادقة وأحاسيسه الوجدانية المرهفة وإبداعه الفائق أن يتعاطف مع أصحاب تلك التجارب علي الرغم من تعددها واختلاف ظروف أصحابها تعاطفًا إنسانيًا ووجدانيًا وفنيًا وصل إلي حد الإندماج الكامل مع أصحاب تلك التجارب، بحيث نري ونلمس في حديثه عنهم وعن تجاربهم حديثا عن نفسه، فكنا نشعر به في قصيدته بلا صدي كأنه هو الذي قد حُرم الإنجاب والولد، ولعل ذلك ما جعله يستشعر تلك النعمة وأثرها علي الإنسان حيث وصف أولاده (رائد ووائل وطارق) وهو يُهدي إليهم – بعد والدته وزوجته – أعماله الشعرية الكاملة بأنهم: أحلي ما أعطته الأيام، وأشعرنا كذلك في قصيدته أم وشهيد بأنه هو ذلكم المكلوم الذي فقد وحيده، وفي قصيدته (ذكريات لاجئ) أشعرنا بأنه هو المشرد والمهجّرُ عن أهله ووطنه، وذلك في سائر قصائده وتجاربه الأخري.

ولا يصل إلي تلك الدرجة من التأثير والصدق الفني إلا شاعرًا في حجم وقيمة الدكتور العزب. ونلحظ كذلك في عاطفة الدكتور العزب أثناء معالجته تلك التجارب ثباتها واستقرارها علي درجة واحدة من القوة

والحرارة والصدق، فلم نشعر بقوتها وصدقها في قصيدة وفتورها وافتعالها أو ضعفها في قصيدة أخري، علي الرغم كما ذكرنا من تعدد وتباين تلك التجارب، وتباين ظروف أصحابها.

ولمقدرة الدكتورالعزب الفنية والبيانية استطاع أن يتنقل بشعره وفنه في عوالم وأسرار تلك الشخصيات أصحاب هذه التجارب التي تخطّي بها حدود الجنس والوطن والزمان والمكان تنقلًا سلسًا هادئًا، دون أن يشعرك بفجوةٍ أو ارتباكٍ أو قلقٍ نفسي أو فني بين شخصية وأخري.

ثالثا: الخيال

مما لا شك فيه أن للخيال والتصوير دور كبير وفعال في إثارة العواطف والمشاعر، وبه يتفاضلُ شاعر عن آخر، حيث إن الخيال هو الذي يهِبُ العمل الأدبي رشاقته وحسنه، ويميز بينه وبين غيره من سائر الأعمال والأقوال غير الأدبية.

والشاعر البارع الجيد هو الذي " يتناول المعاني والأفكار تناولا فنيًا ملموسًا، ويسمو بها علي أجنحة الخيال الرفافة إلي معارجه الفنية المبدعة، ويصعد بها علي رفيف تشبيهاته ومجازاته، وكناياته إلي مرافئه المجنحة العصماء، فيعرضها في أحسن صورة، ويلبسها فاتن شفوفه، ويخلع عليها صوره الحالية الموشاه "(١).

وبدا الدكتور محمد العزب منسجمًا مع نفسه في بناء تلك التجارب الإنسانية التي منحها من خياله ومشاعره ما جعله ينطلق بها من نطاق التقرير والإخبار إلي أجواءِ الخيال وعوالم الأحلام والصور التي أبدع في بناءها جزئية وكلية.

وكثّف الدكتور العزب في تجاربه السابقة من حشد العديد من صور الخيال المختلفة ما بين التشبيهات والاستعارات والكنايات، فلم يكن يعمد إلي إيراد الحقائق في تلك التجارب مجردة جامدة، وإنما كان يعرضها في صور فنية من الخيال الممتع البديع.

وكان العزب في معظم تجاربه السابقة يميل إلي مناجاة ومخاطبة عناصر ومظاهر الطبيعة وإلباسها ثوب التشخيص الفني، وذلك بغرض استنطاقها ومحاورتها في مآسيه وآلامه، بغرض الهروب من واقعه المأساوي الحزين والارتماء في أحضان الطبيعة الآسرة الساحرة.

وما سبق من تحليل وعرض لتلك الشواهد والنماذج يغني عن إعادتها وذكرها هنا مرة أخري.

❁❁❁❁❁

(١)ينظر مناهج البحث الأدبي د سعد ظلام مطبعة الأمانة بالقاهرة ص ١٣٧.

رابعًا: الموسيقي

نوّع الدكتور محمد العزب في أعماله الشعرية بين استعماله للأوزان العروضية، وجمع بين الأصالة والمعاصرة، حيث نظم بعضًا من قصائده الأولي في بداياته الشعرية المبكرة علي أوزان الشعر العمودي الأصيل، كما رأيناه في قصيدته " خواطر عاقر " التي صاغها علي وزن بحر الكامل المجزوء، وكذلك قصيدته " أم وشهيد " التي جاءت هي الأخري علي وزن الكامل المجزوء، واستعمل وزن بحر الرمل (فاعلاتن) في قصيدتيه خواطر عانس ورحلة صيّاد، وقصيدته " مشردون " التي بناها علي مجزوء بحر الوافر.

أما في جانب القافية فكان يعمد الدكتور محمد العزب إلي تنوّع القافية وتعددها في القصيدة الواحدة، حيث كان يأتي لكل فقرة من فقرات القصيدة بقافية مختلفة ومغايرة لما قبلها، ولعله كان يُمهِّد بهذا التنقل الخفيف في فنون وقواعد الميزان العروضي إلي الانتقال إلي الشكل الفني الجديد ألا وهو الشعر الحر الذي اعتمد عليه بعد ذلك الدكتور العزب بشكل كبير في شعره.

وبشعر الدكتور محمد العزب نوعًا آخر من الموسقي الداخلية، وهي تلك الموسيقي الناشئة من اختياره لألفاظٍ معينة وتأليفه بينها تأليفًا حسنًا، فكان يحرص علي انتقاء الكلمات والمفردات الدالة المعبرة، والتي تحتوي علي قدر كبير من الإيحاءات العاطفية والوجدانية المتناغمة، مثل مفرداته (أرقتُ، حصدتُ، ألفيتُ، أعتنق الضياء، تنداح، ينساب، يجوب، يناجي، أناغم، ارتعشت، أصيخُ، أصحو، أغفو،.....)

لمحات نقدية

إن القارئ لشعر الدكتور محمد أحمد العزب والمتمعن فيه يجده حافلًا بالعديد من الجماليات والتجليات النقدية والإبداعية الماتعة، وملئ بالظواهر الفنية والأسلوبية الماتعة التي تزيد النص جمالًا وإبداعًا وإشراقا.

حيث إن " معاشرة النصوص الأدبية وتذوقها وتفهمها، والغوص وراء أسرار الجمال فيها، ومراعاة الظروف والملابسات واختلاف الموضوعات، وإدراك القواعد اللغوية والبلاغية، كل أولئك هو الطريق إلي بعث النقد الأدبي والدراسة النقدية " (١).

ومن خلال تلك الدراسة المتواضعة لبعض القصائد والنصوص الشعرية المحدودة من ديوان الدكتور العزب يمكن لنا أن نستخلص عدة لمحات ولقطات نقدية حول شعره من أهمها ما يلي:

*علي الرغم من مأساوية التجارب وقتامة المشاهد التي عالجها الدكتور العزب في هذا الجانب الإنساني من شعره إلا أنه حرص في نهاية كل قصيدة وفي ختام كل تجربة مأساوية عالجها أن يفتح بابًا من الأمل وطاقة من البشر والتفاؤل عقب كل مأساة تحدث عنها في شعره، وهو بذلك ينتهج منهجًا إسلاميًا وإنسانيًا رفيعًا وهو أن بعد كل عسرٍ يسرٍ، ومع كل ضيقٍ وشدةٍ فرجًا ومخرجًا. فنراه علي سبيل المثال في مختتم قصيدته (خواطر عاقر) يرسمُ علي لسان العاقر بسمة من البشر والأمل في الإنجاب، وذلك في قوله:

لكنني سأعيشُ حـــا... لمة بأشواق السنين

(١)تطور النقد العربي الحديث في مصر. عبد العزيز الدسوقي. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ م ص ٦١

بصغيري المنشود أو..... أقضي معفرة الجبين!!

ونراه كذلك في ختام قصيدته " أم وشهيد " بعد أن وصف مأساة الأم الثكلي وفجيعتها الكبري في فقدان ابنها، يختم قوله بلوحةٍ شعرية تنبضُ بالرضا والتسليم لقضاء الله تعالي، والفخر والزهو بما حققه ابنها الشهيد لها ولوطنه من عزة ومجد وذلك في قوله:

إن كان لم يرجع.. يُكلِلُّ رأسه غارُ الفخارْ

فقد انطوي في قبضتيه الليلُ وانبلج النهارْ

أنا حين ينتصرُ الضياء.. أعيشُ في فجر انبهار

وأري ابني المفقود حيًّا.. رغم أشباح الدمَّار

وفي قصيدته " ذكريات لاجئ " نراه بعد أن عرض مأساة اللاجئ وما يعانيه خارج وطنه من مذلة وهوان، فهو يختتم قصيدته ببث روح الثورة ضد الاحتلال، وبث الأمل في الحرية والنضال، وذلك في قوله:

يا قريتي.. ما عاد طفل الأمس.. طفلًا للخيال

الثأر أنضجه.. فهبّ يدّكُ جدران المحالْ

وهكذا نري في شعر الدكتور محمد العزب في هذا الجانب الإنساني رسالة إلي كل مصابٍ أو موجوع بأن يعيش ويحيا علي الأمل والبشر في غدٍ أفضل ومستقبلٍ مشرقٍ مهما كان حجم المآسي والآلام، وفي ذلك بيان لغاية الشعر العظمي ورسالته السامية التي لا تقف عند حد المتعة أو الإعجاب به فحسب، بقدر ما فيه من رسالة سامية وهادفة للتغلب علي لحظات الضعف والإنكسار البشري، وتجاوز الأزمات والمحن، والاستشراف إلي غدٍ أفضلٍ وسعيد.

*جاءت قصائد الدكتور محمد العزب في هذا الجانب الإنساني من شعره جميعها متسمة بسمة الوحدة الموضوعية والعضوية علي السواء، فنراه في كل قصيدة من قصائده السابقة لا يخرج بنا عن وحدة الموضوع أو الغرض الذي يتكلم فيه، وكان يدلف بنا إلي معالجة تجاربه الإنسانية بطريق مباشر، دون مقدمات أو تمهيد، علي غير عادة القدماء الذين كانوا ينوعون ويجمعون في القصيدة الواحدة أكثر من غرض أو موضوع، وكانوا يستفتحون قصائدهم بمقدمات ومطالع غزلية أو طللية قبل غرض القصيدة الأصيل.

وحرص كذلك في شعره علي الالتزام بالوحدة العضوية، بحيث نري الترابط والتشلبك بين بعض الأبيات وما يليها أو ما يسبقها، وعدم استقلالية البيت الواحد عن سابقه أو لاحقه، كما نلحظ ذلك في قوله من قصيدة أم وشهيد:

ومشي إلي الميدان يوم مشي... وهمهم في الجموع:
سنعود إن عاد الربيع... وأرقص الطيرُ الفروع

وقوله كذلك من قصيدة ذكريات لاجئ:

يا قريتي ما مرّ يومٌ.. دون ذكري أو أملْ
أنا كلّ يومٍ في الضحا.. أعدُو إلي هذا الجبل
أبكي وأغزل من خيوط الوهم فجرًا قد أفلْ
ويجئ طفلي راكض الخطوات.. مشدود المقلْ
ويلوذ بي ويقول: هل ما زلت ترنو للطلل؟

وقوله كذلك في قصيدة خواطر عاقر:

أبدًا يُحَوّمُ خلف أســـ..... تار النوافذ خاطري

متنقلًا بين المهو..... د رفاف ضمة عابر

فيضمها بجناحه الر..... رفاف ضمة عابر

ويعود مختنق اللها..... ة بدمعة المتناثر

والدكتور العزب بتمثله تلك الخصائص والسمات في شعره والتزامه بها يتشابه كثيرًا مع شعراء المهجر العربي الذين كانت تغلب علي أشعارهم ظهور النزعة الإنسانية الشاملة، والالتزام بالوحدة الموضوعية والعضوية في قصائدهم، والاستفادة من تنوع القافية والأوزان الشعرية، والابتعاد عن التكلف، والابتعاد عن أسلوب الخطاب المباشر، وتأمل النفس الإنسانية، والتحاور مع الطبيعة والامتزاج بها وبث روح الحياة في مظاهرها، وكل تلك السمات نجدها حاضرة وماثلة بشكل واضح وكبير في شعر الدكتور محمد العزب.

* ظهر نصيب المرأة في تلك التجارب الإنسانية التي عالجها الدكتور العزب في شعره أكثر من نصيب الرجل، ويبدو أن ذلك الأمر مرجعه إلي ضعف المرأة ورقَّة قلبها، مما قد يجعلها تتأثر بالسلب وتأسي من بعض الشدائد والأزمات التي قد يتغلب عليها الرجل ويتجاوزها.

*تميز شعر الدكتور محمد العزب بوجود بعض الملامح النقدية التجديدية ما يؤكد علي إطلاعه علي المدارس والمذاهب الشعرية والأدبية والنقدية الحديثة ذات التوجهات التجديدية علي نحو ما لمسنا من ملامح رمزية وواقعية ورومانسية وسيريالية.

*برزت ظاهرة التكرار واضحة وجلية في شعر الدكتور العزب في بعض

القصائد المدروسة نلحظ ذلك في قصيدة (خواطر عانس) حيث كررت في مطلعها عبارة (ربما يأتي) ثلاث مرات، وفي قصيدة (ذكريات لاجئ) كررت فيها عبارة (يا قريتي) ست مرات، وفي قصيدة (أم وشهيد) كرّر الشاعر عبارة (عاد الربيع) أكثر من مرة، وفي قصيدة رحلة صياد) كرّر الشاعر عبارة (والذي يحمل فيه صيده مازال قفرًا) أكثر من مرة، وهذا التكرار وإن كان يعدّ عيبًا عند بعض النقاد إلا أنه في مثل تلك التجارب والمواقف الإنسانية المأساوية يكون له أثرًا نفسيًا ووجدانيًا يتعلق بنفسية الشاعر ومأساته.

الخاتمـــة والنتائج

وبعد هذه التطوافة السريعة في دراسة شعر الدكتور محمد العزب الإنساني والذي عالج من خلاله بعضًا من التجارب والقضايا الإنسانية ذات الأثر المأساوي الحزين بنفوس أصحابها خلص البحث إلي عدة نتائج ونقاط منها ما يلي:

- غزارة وكثافة النتاج الشعري عند الدكتور محمد العزب المتعلق بالتجارب الإنسانية المأساوية، حيث عالج في شعره معظم القضايا والتجارب التي تعتصر بالإنسان.
- شمولية التناول عند الدكتور محمد العزب في معالجته لتلك التجارب الإنسانية، حيث غطّي بشعره في ذلك المجال معظم ما يدور ويعتري الإنسان من مآس وآلام، سواءً فيما يتعلق بالرجل أو المرأة علي حد سواء.
- كشف البحث عن ثراء المعجم اللغوي عند الدكتور محمد العزب، وتميزه بالقرب والوضوح، والبعد عن الحوشية والاستغراب، ومقدرته الفنية العالية علي ترتيب الأفكار وتسلسلها تسلسلا منطقيًا فريدًا.
- قدرة الدكتور محمد العزب الفائقة وصدقه في التعاطف الكبير والاندماج الكامل مع أصحاب تلك التجارب المأساوية، إلي درجة كادت أن تنسي القارئ أنه يتحدث عن غيره وإنما يتحدث عن نفسه وأوجاعه.
- أكّدت تلك الغزارة والكثافة العددية في شعر الدكتور العزب في هذا المجال علي ارتباطه الكبير بأخيه الإنسان من حوله وتعاطفه التام مع آلامه ومآسيه التي يعاني منها.

• تنوّع الدكتور محمد العزب الفني في تناوله ومعالجته لتلك القضايا الإنسانية في شعره سواءً علي المستوي الأسلوبي أم علي المستوي العروضي الذي جمع فيه بين الأصالة والمعاصرة.

• تميز شعر الدكتور العزب في هذا الاتجاه الإنساني الشفيف بسمة أدب المناجاة والحديث القريب إلي النفس والقلب، وتجنب نبرة الأدب الخطابي الصاخب المجلجل.

• اتسم حديث الدكتور العزب الشعري في هذا الاتجاه الإنساني بعمق الشعور بالطبيعة، وكثرة الامتزاج بها، واستنطاق مظاهرها، وبثها ما في النفس من آلام وأوجاع.

• تفرّد الدكتور محمد العزب الواضح من بين شعراء عصره وربما فيمن سبقه من عصور في تناوله وعرضه الفني لبعض تلك التجارب والقضايا الإنسانية التي لم يتعرض لمثلها شاعر من قبل.

• حرص الدكتور محمد العزب علي عنونة كل قصيدة بعنوان دقيق وعميق باعتباره أولي عتبات النص الشعري وأول ما يقرع أذن السامع والقارئ لشعره.

• قدرة الدكتور محمد العزب علي ابتكار وافتراع بعض المعاني والصور الي استخدمها في شعره الإنساني.

• عمق ودقة رؤية الدكتور العزب وخصوصيتها للنفس والمجتمع والكون.

• مزج الدكتور محمد العزب في شعره بين الأصالة والمعاصرة، والقديم والحديث من حيث الوزن والموسيقي الشعرية، وذلك بنظمه علي الأوزان

العروضية الأصيلة ثم انتقاله بعد ذلك إلي مرحلة التجديد والنظم علي أوزان الشعر الحر.

• تأثر الدكتور محمد العزب ببعض المدارس والمذاهب الشعرية والأدبية والنقدية الحديثة ذات التوجهات التجديدية فيما تناوله من تجارب وقضايا إنسانية، علي نحو ما بدا لنا في شعره الإنساني محل الدراسة من ملامح رمزية وواقعية، ورومانسية، وسيريالية.

• تعمد الدكتور محمد العزب في قصائده الإنسانية علي الالتزام بوحدة الموضوع والغرض في كل قصيدة بطريقة مباشرة دون تمهيد أو استهلال لها.

• بروز ظاهرة تكرار الجملة بأنواعها وأشكالها المختلفة بكثافة في شعر الدكتور العزب.

• ميل الدكتور العزب في كثير من تجاربه الإنسانية إلي السرد والاستطراد في رسم الصور والمعاني، ولعل ذلك مما يناسب أحوال المآسي والآلام في البوح والإفضاء.

• كشفت الدراسة عن الإنسانية العالية الراقية التي تحلّي بها الدكتور محمد العزب، وذلك من خلال مشاركته العاطفية والوجدانية الصادقة لمثل تلك التجارب الإنسانية العميقة، وما بها من أحاسيس ومشاعر نفسية دفينة لا يستطيع الحديث عنها إلا كل ذي حسٍ إنساني راقٍ وعظيم.

• ندرة البحوث والكتابات حول شعر الدكتور محمد العزب علي الرغم من جودة الآداء، وعمق المعاني والأفكار، ودقة الصور والأخيلة، وتنوع الاتجاهات الشعرية.

مراجع البحث

- **القرآن الكريم**.
- الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر. د محمد مفيد قميحة. طبعة مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٤ م.
- الأعمال الشعرية الكاملة. محمد أحمد العزب. طبعة دار الوفا بالمنصورة الطبعة الأولي سنة ١٩٩٥ م- ١٤١٥هـ.
- الأصول الفنية للأدب. د عبد الحميد حسن. مطبعة الشروق الطبعة الأولي سنة ١٩٨٥.
- الأدب الهادف. محمود تيمور. طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة. الطبعة الأولي سنة ١٩٥٩ م.
- النصوص الأدبية الحديثة. لأعضاء قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود طبعة سنة ٢٠١٢.
- تطور النقد العربي الحديث في مصر. عبد العزيز الدسوقي. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ م.
- دراسات في الشعر العربي المعاصر للدكتور شوقي ضيف طبعة دار المعارف الطبعة السابعة.
- مناهج البحث الأدبي. د سعد ظلام. مطبعة الأمانة بالقاهرة.
- صحيح الإمام مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. ٤ / ١٩٩٩.
- مقدمة ديوان محمود سامي البارودي تحقيق علي الجارم طبعة دار الكتب المصرية.